

محاضرات عن

المجتمع العربي بالكويت

عبدالعزيز حسين

الطبعة الأولى، ١٩٦٠
طبعة جديدة منقحة ١٩٩٤

اهداءات ٢٠٠٢
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
الكويت

محاضرات عن

المجتمع العربي بالكويت

محاضرات عن

المجتمع العربي بالكويت

عبدالعزيز حسين

الطبعة الأولى، ١٩٦٠
طبعة جديدة منقحة ١٩٩٤

عبد العزيز حسين

محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت

طبعة ٢، (جديدة ومنقحة)

دار قرطاس للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٤ .

كلمة

يستخدم العاملون في ميدان السينما عبارة اصطلاحية هي: «كلاكيت آخر مرة» للقطات النهائية للمشاهد التي يصورونها على شرائطهم..

ولعلّ كتاب «محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت» لأستاذ الجيل عبد العزيز حسين الصادر في العام ١٩٦٠ هو «كلاكيت آخر مرة» لحال الكويت قبيل الاستقلال. إذ يرسم المؤلف صورة دقيقة وأمينة لمجتمع الكويت آنذاك في نسقه القومي العربي وإطاره الإقليمي الخليجي وتكوينه الخاص المحلي.. صورة مجتمع ينبض بالحياة وينشد النهوض ويخطو نحوه خطواته الأولى.

ويعرض أستاذ الجيل عبد العزيز حسين في محاضراته، التي ألقاها على طلبة قسم الدراسات الاقتصادية بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، الملامح التاريخية والحضارية والجغرافية للكويت ويفصّل المكونات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الكويتي في واحد من أهم وأبرز منعطفات حياته وصيرورته.

وتتضمن الفصول التسعة التي ينقسم اليها الكتاب مباحث هامة عن الخليج العربي؛ تسميته وجغرافيته وتاريخه، واستعراضاً لتاريخ الكويت وجغرافيتها وبيئاتها، والتغيرات التي أصابت مجتمعها بعد اكتشاف النفط.

ويتضمن الكتاب تقصياً دقيقاً للتطور السياسي للكويت وعرضاً لتطور نظام الحكم والإدارة، حاول المؤلف أن يصوغ فيه ملامح الدولة العصرية الحديثة، التي كان ينشدها الكويتيون عشية الإستقلال.

وركز المؤلف البحث في فصله الأخير على قضية التعليم، وأبرز في ذلك الفصل تطور حال التعليم في الكويت، وما كان ينتظر أن يتحقق في هذا الميدان الحيوي من آمال وطموحات.

ولئن كان عبد العزيز حسين قد رسم في كتابه صورة الكويت قبيل الإستقلال، فإنه لم يكن خارج إطار هذه الصورة بل كان ولا يزال أحد أهم المشاركين فيها من مواقعه المختلفة: مديراً للمعارف في الخمسينات، وسفيراً حمل قضية الكويت في المحافل العربية والدولية في بداية عهد الإستقلال، ووزيراً للدولة في فترات ليست قليلة في الستينات والسبعينات، ومستشاراً بديوان صاحب السمو الأمير؛ وقبل هذا وذاك حامل لواء الثقافة والتنوير في الكويت وأحد أبرز رموزهما في منطقتنا العربية.

فللأستاذ الجيل عبد العزيز حسين التحية والتقدير والثناء على ما قدمه ويقدمه.

وأستميح القارىء عذراً بأنني حاولت في هذه الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب «محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت»، والذي نفد منذ فترة طويلة، أن أضيف بعض الهوامش التي تجدد بعض ما ورد في الكتاب من معلومات تقادمت، كما أشير إلى أن اعتبارات النشر ومقتضيات الحال دفعت بي الى حذف أسطر قليلة في مواضع أربعة من المتن، ولم يغير هذا الحذف المعنى أو يخل بالسياق.

أحمد الديين

الفصل الأول

الخليج العربي

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الكويت، أن نلمَّ في هذا الفصل، إلمامة سريعة بالخليج العربي الذي تقع الكويت في الشمال الغربي منه.

الخليج العربي أو الخليج الفارسي أو خليج البصرة، أسماء تتوارد على مسمى واحد. كان الاسم الشائع القديم هو الخليج الفارسي، وسارت هذه التسمية واشتهرت على الرغم من كون الخليج عربياً وأكثر سكانه على جميع ضفافه عرب يمتون إلى جزيرة العرب أصولاً وفروعاً، وظل العرب يسمّونه بالخليج الفارسي إلى ما قبل سنوات حينما استغلت بعض الدول اسمه الإصطلاحي وحاولت أن تضع له مضامين سياسية، فخشي أبناء الخليج والكويتيون بصفة خاصة، عواقب هذه التسمية وما يمكن أن تجره من أخطار قد تشجع الطامعين في النيل من عروبة الخليج فأطلقوا عليه «الخليج العربي» وأشاعوا هذه التسمية في كتبهم وصحفهم، وعنهم انتشرت في البلاد العربية، وهكذا طابق الإسم المسمى، وقديماً قال أحد المؤرخين العرب «ليس في الخليج شيء فارسي إلا اسمه»، يقصد بذلك أن سكانه عرب وأن حركة الملاحة فيه عربية وأن طابعه العام عربي صرف. ومن المؤسف أن بعض الخرائط العربية لا تزال تحفظ له اسمه القديم، الأمر الذي يجرح شعور عرب الخليج ويغمز عروبتهم، هذا بالإضافة إلى أن تسميته بالخليج الفارسي إنكار لحقيقة جغرافية ثابتة.

ويمتد الخليج العربي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين

هضبة إيران شرقاً وهضبة بلاد العرب غرباً، بين خطي عرض ٢٤ْ ، ٣٠ْ شمالاً وبين خطي طول ٤٧ْ و ٥٧ْ شرقاً، وتبلغ مساحته نحو ١٠٠ ألف ميل مربع تقريباً ويبلغ أقصى اتساع له ١٨٠ ميلا ويبلغ طول ساحله ٦٠٠ ميل.

ونستطيع أن نقسم سواحل الخليج إلى أقسام ثلاثة:

(أ) السواحل الغربية وتتكون من سهول منبسطة تكتنفها بعض التلال، وأكثرها قاحل لقلة المياه، وأصلح أجزائها من الناحية الزراعية هي واحات الإحساء والبحرين وبعض مناطق محدودة من ساحل عُمان. وتكثر في هذه السواحل الشُعب المرجانية والجزر الصغيرة والأخوار، وهو ساحل ضحل في معظم أجزائه.

(ب) السواحل الشرقية، والسهول التي تحف بهذه السواحل ضيقة لشدة انحدار جبال إيران الواقعة عليها، وتمتد قرب هذا الساحل عدة جزر أكبرها جزيرة قشم عند مضيق هرمز، وعمق الخليج عند هذا الساحل أكثر منه عند الساحل المقابل.

(جـ) السواحل الشمالية، وتشمل سهول العراق الجنوبية التي يجري فيها شط العرب، وإقليم عربستان ويجري فيه نهر كارون. وأكبر جزر هذا الساحل جزيرة بوبيان التابعة للكويت. وتكثر الرواسب التي يلقيها شط العرب، ملتقى نهري دجلة والفرات، في شمالي الخليج الذي يتراجع باستمرار نحو الجنوب، حتى أنه يقدر أنه تراجع حوالي ٣٢٥ كيلومتراً في مدى الألفي سنة الماضية.

لقد كانت شبه جزيرة العرب في العصور الجليدية تسودها الأمطار وكانت غنية بالنباتات والحشائش، وكانت كل الظروف المناخية والنباتية

في سواحل الخليج العربي تسمح بقيام الحياة ونشوء الحضارات، وتدل الآثار والحفريات التي اكتشفت حديثاً على صحة ذلك.

وكان الخليج ولا يزال محط أنظار العالم وموضع اهتمامهم في العصور القديمة والحديثة معاً، مع اختلاف الزمن وتغير الظروف والأسباب، فتارة يظهر على مسرح السياسة العالمية بسبب موقعه الجغرافي وتارة بسبب خيراته المتكدسة في أرضه ومائه، وهو في كل مرة عامل مثير لرجال السياسة والاقتصاد معاً.

والخليج العربي عريق في حضارته وتراثه، فلقد وضعه مركزه الجغرافي موضع صلة بين ممالك العالم القديم ودوله، وكان المدخل إلى حضارة ما بين النهرين والشام، والطريق إلى الهند والشرق الأقصى، وبهذا أصبح مركز تجمع وتوزيع لحضارات مختلفة، وموقعاً إستراتيجياً مهماً يتحكم في الممر إلى تلك الحضارات والأسواق، والدولة التي تتحكم في ممراته يمكنها أن تسيطر أو تُملي إرادتها على الدول الأخرى. على أن الخليج لم يكن ممراً بحرياً للتجارة أو الحضارة فقط، بل كان له تراثه الحضاري الخاص به. والمعروف أن الحضارات القديمة كانت تنشأ إما بجانب نهر أو بجانب بحر، والخليج العربي بحر يتصل بنهر هو شط العرب، فلا غرابة أن يكون مهد حضارات قديمة. ولقد دلت الحفريات التي أجريت في البحرين أخيراً أنها كانت موطناً لحضارات موغلة في القدم، كما تدل تباشير الحفريات التي تجرى الآن في جزيرة فيلكا التابعة للكويت أن حضارة قامت في هذه الربوع منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، وأنها ذات طابع خاص، تدل على ذلك مجموعة الأختام الكبيرة التي وجدت هناك. وهي أختام مستديرة كل ختم له نقش يختلف عن الآخر، وهي تختلف عن أختام العراق الاسطوانية وأختام الهند المربعة. وربما كانت جزيرة فيلكا هذه هي التي عناها المؤرخ

اليوناني القديم «آريان» الذي دوَّن أخبار الإسكندر عام ١٧٠ ميلادية فقد ذكر هذا المؤرخ أن جنود الإسكندر أقاموا في جزيرة شمالي الخليج بعد أن أبحروا جنوبي العراق، وقد وجدوا أن أهل هذه الجزيرة قد شيدوا هياكل ومعابد عديدة، وأن أحد هذه المعابد قد أقيم لأرتميس إله الصيد والقمر. وقد اكتشف أحد هذه المعابد في جزيرة فيلكا. وفي مارس سنة ١٩٦٠ وجدت فيه لوحة حجرية منحوتة تتضمن رسالة موجهة إلى حاكم جزيرة (ايكاروس).

هذا، ويرجح المؤرخون أن موطن الفينيقيين الأصلي كان على ساحل الخليج العربي ولما انتقلوا إلى الشمال نقلوا إلى الشام أسماء بعض بلادهم التي هاجروا منها مثل «صور» و «جبيل». وقد وجدت في جزر البحرين مجموعة كبيرة من القبور استرعت نظر علماء الآثار، وهي تشبه في طريقة بنائها تلك الطريقة المعروفة عند الفينيقيين، وقد لاحظ الجغرافي اليوناني «سترابو» (٦٣ ق.م و ١٩ ب.م) ذلك وذكر هذا الشبه. كما ذكر هيرودتس في أول تاريخه أن الفينيقيين جاءوا من سواحل هذا الخليج.

وقبيل الإسلام وفي صدره كان ساحل الخليج العربي آهلا بالسكان وبالقبائل التي تطلب الرعي والمياه على سواحله، وكانت الأزد تعمر عمان وإياد وبكر بن وائل في سواحل البحرين وكاظمة وحولها، وكانت هجر تصدر الثمار وبالأخص التمر إلى جوف الجزيرة، وكان يعمرها بنو محارب بن عبد القيس، وكانت موانئ البحرين تزدهر فيها صناعة السيوف والرماح ومنها الرماح الخطية المشهورة، وكان اسم البحرين إذ ذاك يطلق على الساحل العربي من عُمان إلى كاظمة في الشمال، ثم أطلق هذا الإسم على الجزر الحالية التي تعرف به الآن من قبيل إطلاق الكل على الجزء. وما في ذلك من خطأ فقد نقل الإسم من بلاد عربية إلى بلاد عربية أخرى هي بضعة منها، وكان اسم هذه الجزر

قبل ذلك جزر أوال. وأوال اسم لصنم كانت تعبده بكر بن وائل، وهي قبائل عربية سكنت هذه البلاد قبل الإسلام بزمن بعيد.

ويجرنا الحديث عن جزر البحرين إلى الدعوى التي تدعيها إيران بملكية هذه الجزر العربية العريقة في عروبتها[1]: - إن نظرة نلقيها على الخريطة ترينا أن أقرب نقطة في البحرين عن الساحل العربي لا تزيد عن ١٢ ميلاً بينما تفصلها عن أقرب ميناء إيراني على الساحل الآخر (أبوشهر) ١٨٠ ميلاً. . وأن أطول فترة حكم فيها الفرس البحرين كمستعمرين لا تتجاوز المائة سنة، وكان ذلك في عهد الساسانيين قبل الإسلام، ومع ذلك فلم يكن حكمهم لها خلال تلك الفترة حكماً مباشراً، إذ أن من المعلوم أن آخر حاكم للبحرين (بالمفهوم القديم) في هذه الفترة هو المنذر أحد بني عبدالله بن زيد، وكان يدين بالولاء للمناذرة في الحيرة، لذلك كان ولاء البحرين للمناذرة يربطها بعجلة الدولة الفارسية بصورة غير مباشرة، وعندما جاء الإسلام وضع حداً لهذه السلطة الدخيلة.

وفي أول القرن السادس عشر الميلادي احتل البرتغاليون البحرين ومكثوا فيها حوالي أربعين عاماً حيث طردهم اليعاربة عام ١٦٢٢، وكانت دولة اليعاربة إذ ذاك دولة ذات أمجاد عظيمة نشأت في عُمان واتسع نفوذها إلى سواحل الهند وسواحل أفريقيا الشرقية، وفي عام ١٧٥٣ احتل الفرس البحرين مرة أخرى ومكثوا فيها ثلاثين عاماً. ثم تداولت البحرين السلطات العربية المحلية ثم العثمانيون ثم الوهابيون إلى أن دخلها آل خليفة حكامها الحاليون.

---

(١) نالت دولة البحرين استقلالها في ١٤ اغسطس ١٩٧١ وانضمت إلى الأمم المتحدة (الناشر).

من هذا يتضح أن سيطرة إيران على هذا الجزء من الوطن العربي لا تعدو لحظة في أعمار الشعوب والأمم. فإذا جاز لإيران أن تطالب بالبحرين اليوم فإنه يجوز لتركيا ومسقط والمملكة العربية السعودية والبرتغال أن تطالب بها، وجريا على هذا المنطق يجوز للبحرين أن تطالب بسواحل إيران العربية لأن أول جيش عربي وطىء الأراضي الفارسية فاتحاً وهادياً إنما توجه من البحرين بقيادة المجاهد العربي العلاء بن الحضرمي، بل يجوز للعرب أن يطالبوا بإيران جميعها وقد كانت لقرون عديدة جزءاً من الإمبراطورية العربية.

ومما هو جدير بالذكر أن الساحل الشرقي من الخليج الذي يخضع لسيطرة إيران في الوقت الحاضر كانت تقطنه وما زالت قبائل عربية منها بنو كعب وبنو تميم، وأغلب سكانه من أصول عربية ويسمى أغلب أجزائه عربستان أي أرض العرب، وهو إعتراف من إيران أو من اللغة الفارسية بعروبة هذا الساحل. وقد عاشت هذه المنطقة فترة طويلة من الزمن متمتعة باستقلال ذاتي ومحكومة بأمراء من العرب، وكانت آخر إمارة قامت هناك هي إمارة المحمرة وكان آخر أمرائها هو الشيخ خزعل بن مرداو الذي توفي في المعتقل بإيران منذ عهد قريب.

إن الملاحظ في تاريخ الخليج العربي أن السيطرة فيه تكون للدولة ذات القوة البحرية التي تستطيع بها أن تتاجر وتحارب معاً، وسكان الساحل العربي كانوا أدرى بهذه الحقيقة من سواهم، ولذلك فقد اهتموا بالسفن وإنشائها واعتمدوا عليها في تجارتهم مع الهند وأفريقيا، ونبغ منهم الربابنة الأفذاذ، وازدهر الخليج في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وقامت عدة دول عربية في مسقط وعُمان كانت تملك الأساطيل البحرية الضخمة التي لم تمهد لها سبيل التحكم في تجارة الخليج فحسب بل أنشأت لها مستعمرات في أفريقيا ما زالت للآن تحمل

الطابع العربي بل ما زالت زنجبار تحكمها أسرة عربية[1]. ولكن نجم الحكم العربي، في الخليج أخذ بالأفول منذ أن قاد الملاح العربي أحمد بن ماجد سفينة فاسكودي جاما عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى البحر العربي في طريقه إلى الهند عام ١٤٩٨، وهكذا جر هذا الملاح العربي بكرمه العلمي أكبر نكبة على أهله العرب، فلقد أدى نجاح فاسكودي جاما إلى القضاء شيئاً فشيئاً على أسطول العرب التجاري والعسكري. كان العُمانيون يسيطرون على البحر العربي وينقلون تجارة الشرق إلى مصر ثم ينقلها الملاحون إلى تجار «البندقية وجنوا»، فأدى نجاح فاسكودي جاما إلى الكساد الإقتصادي في مصر فقد تحول الطريق عنها وتهيأ للعثمانيين غزوها، كما تهيأ للبرتغاليين إقامة امبراطورية في الشرق ارتكبوا في سبيل المحافظة عليها وتبعيتها كثيراً من الجرائم كحرقهم مدينة مسقط والسفن الراسية فيها وجدعهم أنوف السكان والتمثيل بهم.

ولكن البرتغاليين فوجئوا بضيف جديد يزورهم في مياه الخليج الدافئة، فلقد علم الإنجليز بالثروات الطائلة التي اكتسبها البرتغاليون من الشرق، وبدا لهم أنهم أولى بهذه الثروة، وخاصة بعد أن تم لهم القضاء على أسطول أسبانيا الضخم «الأرمادا» وبعد أن أخذت مظاهر سيادتهم البحرية تتخذ طابعاً دولياً، فوجهوا أنظارهم نحو الشرق للبحث عن مصادر الكسب.. وضاق البرتغاليون بهذا الضيف الثقيل ذرعاً، فأخذوا يضعون في سبيل تجارته العراقيل، فأصدروا أمراً يمنع الملاحة في الخليج إلا بإذن منهم، وكان المقصود بهذا الأمر الإنجليز خاصة. وفي الوقت الذي بدأ فيه إصبع الإنجليز في الخليج كان البرتغاليون يواجهون ثورات متتابعة من

---

(١) خلع السلطان جمشيد في أعقاب ثورة يناير ١٩٦٤، وأعلنت زنجبار جمهورية ثم اتحدت مع تنجانيقا فيما يعرف الآن بتنزانيا. (الناشر).

أصحاب البلاد بسبب السياسة التعسفية التي انتهجوها مع الأهالي وبسبب النهب والسلب للممتلكات وبسبب تحديهم السافر لكرامة العرب في ديارهم. . وهكذا واجه البرتغاليون ضيفاً جديداً يحاول أن يحل مكانهم وشعباً يتحين الفرص للتخلص من حكمهم. وما لبثت مقاومتهم أن انهارت، وفي عام ١٦٥٠ وبعد معارك شديدة تم للعُمانيين بقيادة الإمام سلطان بن سيف إجلاؤهم من الخليج بل تعقبوهم حتى سواحل الهند وأفريقيا الشرقية. وأتاح خروج البرتغاليين من الخليج، للتجارة والملاحة الإنجليزية أن تزدهر وتتوطد، ولكن منافساً جديداً ظهر في الخليج كان أكثر قوة وتصميماً من البرتغال، هم الهولنديون، وقد اعتمد الهولنديون على القوة قبل كل شيء ولم يحسنوا السياسة، والقوة دائماً مثيرة للعرب الذين واجهوهم بثورات مضادة حتى أخرجوهم من جزيرة «خراك» آخر مركز لهم. وقد كان الهولنديون طول إقامتهم في الخليج على منافسة تجارية وسياسية حادة مع منافسيهم الإنجليز.

وفي هذه الأثناء ظهرت فرنسا في الخليج وأخذت تمهد لإقامة علاقات تجارية وسياسية مع العرب، وكانت الواسطة في هذه العلاقات مستعمرة موريشس الفرنسية، وكان أسطول عُمان التجاري يتولى في ذلك الحين مهمة النقل البحري بين الخليج والمستعمرات. وقد ظلت موريشس واسطة لإنشاء هذه العلاقات حتى أدرك الإنجليز خطرها فاستولوا عليها سنة ١٨١٠.

ويبدو أن غاية فرنسا من إنشاء علاقات تجارية وسياسية مع الخليج كانت مقدمة لغزو الهند، فقد جاء في أسباب إنشاء قنصلية فرنسية في مسقط أنها ستكون مركزاً للتجسس على حركات الإنجليز ودراسة أحوال هذه البلاد والطرق التي يمكن استخدامها في حالة غزو فرنسي للشرق. ولكن سياسة فرنسا في الخليج لم توفق لعدة أسباب،

أهمها الثورة التي لاقتها من العالم العربي والإسلامي من جراء حملتها على مصر، ولعدم وجود نشاط تجاري وملاحي واضح لها في الخليج.

لقد كانت علاقة الإنجليز بالخليج في أولها علاقة تجارية بحتة، وكانت جزءاً من علاقة شركة الهند الشرقية التي تم إنشاؤها عام ١٦٠٠، ولكن نجاح هذه الشركة التجاري، وحماية الحكومة الإنجليزية لها، طورها إلى هيئة سياسية تسيطر على مناطق واسعة في شبه القارة الهندية. وأخيرا حلت الحكومة الإنجليزية سنة ١٨٥٧ محل الشركة وأعلنت ملكة بريطانيا امبراطورة على الهند. منذ ذلك الحين وضعت انجلترا مياه الخليج ومدنه في مخططها السياسي، وأبعدت بكل جد وحزم أي قوة تحاول النفوذ إلى الخليج سواء كانت عربية أو أجنبية، حرصاً منها على سلامة الطريق إلى الهند.

ولقد استفادت السياسة البريطانية من أخطاء البرتغاليين والهولنديين، فحاولت أن تنشئ علاقات متينة مع إمارات الخليج، لعل أولها الاتفاق الذي تم بينها وبين الشيخ سعدون حاكم أبوشهر. وفي عام ١٨٥٣ وقع أمراء ساحل عُمان وثيقة السلم الدائم التي نظمت على أسسها علاقات بريطانيا بهذه المنطقة وقد نص في هذه الوثيقة على «أن تكون المحافظة على السلام تحت إشراف بريطانيا، وهي التي تعمل على تنفيذه واحترامه». وقد سمي هذا الساحل منذ ذاك بالساحل المهادن[١] وهو يتكون من إمارات ١ ـ أبوظبي ٢ ـ دبي ٣ ـ الشارقة ٤ ـ عجمان ٥ ـ أم القيوين ٦ ـ رأس الخيمة (جلفار).

---

(١) أعلنت إمارات أبوظبي، دبي، الشارقة، عجمان، أم القيوين والفجيرة قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في ١٩٧١ وانضمت إمارة رأس الخيمة الى الدولة في ١٠ فبراير ١٩٧٢ . (الناشر).

نلاحظ من حديثنا السابق أن الصراع بين العرب والقوى الأجنبية يدور أكثر ما يدور في مسقط وعُمان. لقد كانت عمان ومسقط في تلك الفترة تشكل القوة الضاربة في الخليج نظراً لوفرة سكانها وقوتها البحرية ونظراً لأن الهجوم الأجنبي يوجه إليها أول ما يوجه. وقد كانت مسقط باعتبارها ميناء طبيعياً هاماً عند أول الخليج مطمعاً لأول غاز. فقد احتلها الأميرال البرتغالي البو كيريك Albu querque بعد أن دمر سفنها ومبانيها سنة ١٥٠٦ ثم أخذها الأتراك من البرتغال عام ١٥٥٠ ثم استردها منهم البرتغال سنة ١٥٥٣ بعد أن حطموا الأسطول التركي وفرضوا سيطرتهم على الخليج كله.

ولكن نفوذ البرتغال بدأ يضعف حتى طردهم منها إمام عُمان في يناير عام ١٦٥٠ ثم احتلها الفرس عام ١٧٣٧ إلى أن طردهم منها السيد أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية لمسقط وذلك عام ١٧٤١ وأصبحت مسقط عاصمة لعُمان منذ عام ١٧٩٣ وعقدت معاهدة مع الإنجليز عام ١٨٠٠ عينت بعدها بريطانيا ممثلاً لها بمسقط كان يتحكم في أمور السلطان بصورة واضحة وكانت زنجبار تابعة لمسقط، ولكن عندما مات السلطان سعيد عام ١٧٥٦ تقاسم ولداه ثويني وماجد مملكته فأخذ ثويني «مسقط» وماجد «زنجبار». وفي عام ١٨٦١ أعلنت زنجبار استقلالها على أن تدفع ضريبة سنوية لمسقط وفي عام ١٩١٥ احتلت بريطانيا مسقط بحجة حمايتها من إمامة عُمان.

ولم تكن الامارات العربية الأخرى في الخليج بمنأى عن هذا الصراع الطويل وهذه التيارات المتضاربة في سواحل عُمان ومسقط. فقد كانت البحرين في مد وجزر دائمين مع الأحداث. وكانت مطمعاً لجميع القوى المحلية والدخيلة. وكان سلاطين مسقط يدعون ملكيتها فقاموا بعدة محاولات لضمها إليهم، ففي سنة ١٧٩٩ قام سلطان بن أحمد

حاكم مسقط بحملة بحرية لاحتلالها وفي سنة ١٨١٦ أرسل السيد سعيد حملة أخرى لاستردادها وفي سنة ١٨٦٧ وقعت إمارة البحرين معاهدة مع بريطانيا كان ضمن نصوصها أن تحافظ البحرين على حسن علاقة الجوار بينها وبين جيرانها. ولكن كانت العادة لدى أمراء العرب في ذلك الحين أن أحدهم لا يكاد يستقر له الحكم في بلاده حتى يحاول ضم بلاد مجاورة إليه، ولعل هذه الرغبات التوسعية عند الأمراء العرب هي التي مكنت لإنجلترا نجاح سياستها في الخليج. ففي سنة ١٨٦٧ بعد توقيع المعاهدة شن محمد بن خليفة غارة على قطر بسبب اختلافه مع حاكمها على الأتاوات التي يدفعها حاكم قطر للبحرين. واستغل الإنجليز هذه الفرصة فحاصروا البحرين وطلبوا إلى محمد بن خليفة أن يتنازل عن الإمارة لأخيه علي بن خليفة فسلم مكرها، ثم وقعوا مع الحاكم الجديد معاهدة جديدة. وتسلل الحاكم المعزول إلى الكويت ثم إلى القطيف، وهناك ألّف جيشا وقام بحملة بحرية عام ١٨٦٩ ونجح في احتلال البحرين رغم قلة عدد جنده وقد ساعده الأهالي نكاية بالحاكم الذي رفعته إلى الحكم حراب الإنجليز فحاصر الإنجليز مدينتي المنامة والمحرق وضربوهما بالقنابل، واشتبكوا مع الثوار في معركة تم للإنجليز بعدها ما أرادوا.

في هذه الفترة حاولت تركيا أن تضم البحرين إلى متصرفية الإحساء ولكنها فشلت، وقد اشتدت أهمية البحرين بالنسبة للإنجليز عندما ظهرت أطماع روسيا القيصرية في الشرق وعندما ظهر مشروع الألمان لمد سكة حديد بغداد ـ الكويت. وفي أثناء الحرب العظمى الأولى اتخذت البحرين قاعدة للأسطول البريطاني ثم أصبحت مركزاً للدبلوماسية البريطانية في الخليج بعد أن انتقل إليها المقيم السامي البريطاني من مقره القديم في أبوشهر.

يبدو لنا من هذه الصور السريعة التي استعرضناها أن الخليج العربي لم يعرف الاستقرار في تاريخه الطويل، وأنه منذ بدأت الاكتشافات الجغرافية الاستعمارية في القرن الخامس عشر والصراع متصل حاد حول الخليج العربي. لقد دار صراع طويل عنيف، ظاهر أحيانا وخفي أحيانا أخرى بين القوى الكبرى التي أرادت السيطرة على هذا الطريق المائي الحيوي. كما دار صراع طويل بين هذه القوى وبين أصحاب الحق الطبيعي في هذه الجزء من العالم العربي.

وفي أوائل هذا القرن ظهر عامل جديد أذكى النار وأججها، فقد اتضح أن الخليج غني بالذهب الأسود في معظم سواحله وشواطئه. وأول ما اكتشف البترول كان في ساحل إيران عام ١٩٠٣، ويبدو أن انجلترا كانت تتوقع اكتشاف البترول في إمارات الخليج مما حداها إلى أخذ التعهدات على الأمراء بأن لها وحدها الحق في التنقيب عنه في تلك البلاد. وكانت أول محاولة للبحث عن البترول في الساحل العربي هو اتفاق الميجر هولمز مع المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود للتنقيب عن البترول في منطقة الإحساء عام ١٩٢٣، على أن هذه المحاولة لم تنجح وأعطي حق التنقيب لشركة أرامكو عام ١٩٣٥ والملاحظ أن حقول البترول في المملكة العربية السعودية في الدمام وابقيق والقطيف كلها على الخليج كما اكتشف البترول في البحرين عام ١٩٣٢ ثم في قطر وفي الكويت وأبوظبي، وجار التنقيب في بقية إمارات الساحل المهادن.

وبظهور البترول بهذه الوفرة في الخليج العربي بدأت حرب يمكن أن نسميها حرب البترول في الخليج، وقد كان نفاذ الأمريكيين إلى البلاد العربية عبر الخليج حادثاً هاماً في موازين القوى السياسية والاقتصادية في المنطقة، وأصبح الصراع حول البترول يلعب دوراً هاماً ورئيسياً في السياسة الدولية. إن كل مشروعات السلام والحرب في أوروبا تعتمد

الآن إلى حد كبير على بترول الشرق الأوسط. وبانتشار الوعي بدأ العرب في الخليج يفيدون تدريجياً من هذه القوة الاقتصادية الجديدة، والطريق أمامهم مفتوح لمزيد من الإفادة.

هذا الخليج العربي بماضيه الطويل الزاخر، وحاضره المتوثب المتأهب، ومستقبله الزاهر، تمثل الكويت جزءاً حيوياً فيه، وترتبط به بصلة الدم وصلة التاريخ وصلة السياسة والمصير المشترك. كل ما يجري فيه من أحداث له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالكويت.

لمزيد من البحث

(1) The persian Gulf. by Sir Arnold T. Welson.
(2) Encyclopaedia Britanica.
(3) Ency. of Islam.

٤ - قضية البحرين ـ يوسف الفلكي.
٥ - البحرين وإيران ـ مجيد خدوري.
٦ - القضية العُمانية ـ فيصل علي فيصل.
٧ - كويت وكويتيون ـ راسم رشدي.
٨ - الاستعمار في الخليج الفارسي ـ صلاح العقاد.
٩ - الإمارات السبع على الساحل الأخضر ـ أحمد قاسم البوريني.
١٠ - الشرق الأوسط في الميزان الاستراتيجي ـ محمد كمال عبدالحميد.
١١ - تاريخ الحرب العظمى ـ الجزء السادس ـ طبع القاهرة دار المقتطف والمقطم.
١٢ - الخليج العربي، تأليف جان جاك بيريبي وترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز ـ بيروت

الفصل الثاني

إستعراض سريع لتاريخ الكويت

يقول العلامة الأب انستاس ماري الكرملي في مقال له عن الكويت نشر في العدد العاشر من السنة السابعة من مجلة المشرق في ١٥أيار (مايو) سنة ١٩٠٤ «أن الكويت تصغير كوت وهو في لغة أسفل العراق وما داناه من بلاد العرب والعجم البيت المبني بهيئة القلعة أو دونه تحصينا يتخذ ملجأ عند الحاجة وحوله عدة بيوت راجعة إلى البيت الأب، ولا يطلق عليه هذا الإسم إلا إذا كان قريبا من الماء، سواء كان نهرا أو بحرا أو مستنقعا أو غيره، وقد أضيفت إلى عدة أسماء منها كوت الأفرنكي وكوت الزين وكوت الإمارة.... ثم قال والظاهر أن هذه اللفظة قديمة الاستعمال في هذه الربوع وهي ترتقي إلى عهد الكلدانيين والأشوريين والبابليين.....» ثم يروي الأب الكرملي عن الشيخ محمود شكري الآلوسي أنها نبطية الأصل، ويعقب على ذلك قائلا: «وأنت لا تجهل أن النبطية قد وردت عند الناطقين بالضاد بمعنى الكلدانية أو الأشورية أو البابلية أو الآرامية...».

وحيث أن المشهور عند الكثيرين ممن تصدوا لبحث معنى هذه التسمية أنها من أصل برتغالي بمعنى الحصن أيضا، فإن الأستاذ الباحث عباس العزاوي ينفي ذلك في كتابه تاريخ علم الفلك في العراق إذ يقول: «الكويت تصغير كوت، وهي القلعة الحصينة، واللفظة هندية قطعا ولم تكن برتغالية، وقد سميت مدن كثيرة في الهند بهذا الإسم أو باسم قوت، ومنها قلعة راج التي ينتسب إليها صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، وكذا ورد «قالقوت» أي قلعة «قال» البلدة

المعروفة في بلاد الهند والتي تسمى الآن كالكوت وهي التي وصل إليها ابن ماجد مع فاسكو دي جاما، ووردت في المؤلفات العربية مما يدل على قدم اللفظة...».

ومهما كان أصل التسمية فقد وردت كلمة كوت بمعنى الحصن على أقلام الكتاب في القرن الماضي، وجمعوها على أكوات بمعنى حصون. جاء في كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب» وهو مخطوط تاريخه عام ١٨١٧م بالمتحف البريطاني إذ يتحدث عن معركة الوهابيين وعرب الخوالد وهم الذين كانوا يسكنون على ساحل الخليج الشمالي «والأكوات قد سلموها بيد أناس من أهل تاروت (بلد بالاحساء) فخانوا بهم ونزلوا من الأكوات فصعدها أهل نجد...» وقد وردت كوت بمعنى حصن في مواضع عديدة من هذا الكتاب...

إذن فالكوت معناه الحصن، والكويت حصن صغير. ويبدو أن سكان هذه المنطقة من الجزيرة العربية كانوا يميلون إلى التصغير بشكل ملحوظ مهما كانت صعوبة صيغة التصغير من حيث القواعد الصرفية، فإلى أن كلمة كويت وهي تصغير كوت لم يرد ذكرها علما على هذا المكان بالنص منذ أكثر من ٢٥٠ عاما تقريبًا فإن هذا الموقع كان يسمى باسم مصغر هو القرين «تصغير قرن» ولا تزال عدة مواقع في هذه المنطقة تحمل هذا الاسم المصغر. ومن أمثلة المواقع المصغرة الأخرى في الكويت. الشويخ والصليبيخات، والشعيبة والفنيطيس والفحيحيل والمعيدنيات وأبو حليفة وغيرها...

وإذا كانت هذه الأرض بدأت تعرف باسم الكويت عندما أنشىء فيها هذا الحصن الصغير على ساحل البحر في موقع يظن أنه على تل في الطرف الغربي من المدينة الحالية فإن لهذه المنطقة من الساحل تاريخها العريق باعتبارها جزءا من الخليج الذي زخر بالحضارات وبالأحداث في التاريخ

القديم وباعتبارها جزءا من جزيرة العرب يقع في الطريق إلى العراق في الشمال، وقد كان يسكنها في الجاهلية وصدر الإسلام قبائل عربية تركت من آثارها أسماء لا تزال تحتفظ بها للآن، كسفوان، الماء الذي اقتتل عليه بنو تميم وبنو شيبان، وقال ودَّاك المازني في هذه المعركة:

رويدا بني شيبان بعض وعيدكم   تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى   إذا الخيل جالت في القنا المتداني

وأوارة والعدان اللذين يذكرهما الشاعر الجاهلي بقوله:

جلبنا الخيل من تثليث حتى   بلغن بها أوارة فالعدان

وبأوارة وقعت قصة البراجم الشهيرة التي أشار إليها ابن دريد في مقصورته:

ان ابن هند باشرت نيرانه   يوم أوارات تميما بالصلى

وكاظمة التي وردت في البردة للبوصيري:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة   وأومض البرق في الظلماء من اضم

وبعض أيارق العرب، وغيرها من الأسماء التي أطلقها الأجداد على مساكنهم وموارد مائهم ومواطن ذكرياتهم.

وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة (٦٣٣م) وقعت على هذه الأرض (قرب كاظمة) معركة حربية بين العرب بقيادة خالد بن الوليد وبين الفرس بقيادة هرمز في معركة ذات السلاسل الحاسمة في عهد أبي بكر الصديق. وفيها دفن غالب بن صعصعة، والد الفرزدق، الذي جعل من قبر والده محجة وملجأ لكل مستجير. وأذكر عندما زارنا المرحوم الدكتور عبدالوهاب عزام فكان أول ما سأل: أين مرابع الفرزدق؟ وعندما جلنا في منطقة كاظمة، أنشدنا رحمه الله:

بكاظمة طوفت في ميعة الضحى وقلبي إلى الماضين جمّ التشوق

أكاد أرى في رملها قبر غالب وأسمع في الآفاق شعر الفرزدق

ولم يذكر التاريخ العربي قيام مدن ذات شأن في أرض الكويت الحالية قبل نشأة مدينة الكويت ذاتها. ولكن هناك ما يدل على أن واحة الجهرة في الشمال كانت تقوم عليها أو حواليها مدن قد تكبر وقد تصغر حسب موجات الأحداث المتلاطمة، وما أكثرها في تاريخ هذه الأرض. وقرية الجهرة الحالية شمالي الكويت تقوم في بقعة بها ماء، وعلى أرض صالحة للزراعة، ولكنها لم تكن في هذا الموقع قطعا قبل ما لا يزيد عن مائة من السنين فقد كانت في موقع ليس بعيدا عن موقعها الحالي يسمى الآن «الخويسات» والخويسات عندنا صغار النخل. قال صاحب لمع الشهاب: «كانت الجهرة في عصر الجاهلية وقبل مبعثه (ص) بسنين تبلغ مائة في غاية العمران، وهذه آثارها تدل على عظمتها اليوم فإن فيها خرابات كثيرة من البنيان، وربما وجدوا فيها ذخائر من الدراهم والدنانير في بعض المواضع» ثم يقول «ويقع عن الجهرة شمالا شرقا مائلا إلى البحر بلدة كانت في السالف عمارا، قد بقيت آثارها إلى اليوم، وهي في البعد عن الجهرة بأربعة عشر فرسخا، تسمى الصبية نسبة إلى الصابئين، قيل أنها من بقايا بلادهم التي عمرت بعد خراب بابل...».

لم يقم أحد بالتنقيب عن الآثار في أرض الكويت إلا منذ ثلاث سنوات عندما سمح لبعثة دنمركية بذلك فبدأت عملها وما زالت تقوم به شهرين أو ثلاثة كل عام في جزيرة فيلكا، حيث عثرت على دلائل حضارة قامت في ربوعها أو مرت بها منذ أربعة آلاف عام وعلى أخرى قامت بها أو مرت بها من ألفين من السنين. وجزيرة فيلكا هذه كانت آهلة بالسكان قبل أن تقوم بلدة الكويت كما أن فيها ما يدل على أن البرتغاليين عندما جاءوا الخليج في أوائل القرن السادس عشر كانت هذه

الجزيرة العربية من بين ما احتلوه من البلاد ويظن بعض الباحثين أن اسمها الحالي اسم برتغالي بمعنى البلد السعيد. وذكر المرحوم عبدالعزيز الرشيد صاحب تاريخ الكويت أنه عثر في الجزيرة الكبيرة، على صنم منحوت عليه كتابة غير عربية، حطمه من وجده بفأسه لعدم إدراكه لأهميته، كما عثر فيها على جرار مختومة بها تراب أحمر ربما كان أصحابه الأقدمون يعتقدون فيه اعتقاداً خاصاً.

ليس لدينا التاريخ الدقيق لنشأة مدينة الكويت التي خلعت اسمها على الإمارة كلها، ولا ندري ما إذا كانت التسمية بدأت ببناء الكويت الصغير الذي أسلفنا الإشارة إليه أو بنزوح آل الصباح إلى هذه المنطقة. فإذا كان بدء نشأة الكويت هو بناء هذا الحصن فالمروي أن الذي بناه هو محمد بن عريعر أمير بني خالد الذي توفي عام ١١٠٣هـ (١٦٩١م) وإذا كانت نشأة الكويت تبدأ بقدوم آل الصباح إليها، فإن أول من عرف من حكام الصباح هو صباح الأول الذي توفي سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٦م). ومهما يكن من الأمر فإن اسم الكويت بدأ يُعرف في حوالي منتصف القرن الثامن عشر وإن كان بعض الرحالة الغربيين كثيرا ما أطلقوا عليها اسم «القرين» في هذا التاريخ.

كان يعمر هذه المنطقة الواقعة بين كاظمة شمالا والإحساء جنوبا ويسيطر عليها سيطرة تامة قبل نشأة الكويت، قبائل بني خالد التي كانت من أكبر القبائل العربية إذ ذاك نفوذا وعددا، وقد احتلوا الاحساء بعد أن طردوا الحامية التركية عام ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م) وناوأوا حركة إبن عبدالوهاب في أول نشأتها بنجد. وعندما توفي رئيسهم سعدون بن محمد سنة ١١٣٥هـ (١٧٢٣م) اختلف آل عريعر فيمن يتولى الرئاسة بعده وانقسموا فيما بينهم ووقعت بينهم حروب طاحنة إلى أن استقر الأمر لعريعر بن دجين الذي التف حواليه أمراء بني خالد في الوقت الذي

بدأت فيه الحركة الوهابية تنمو في الدرعية، فسار بجيش كبير لحرب محمد بن سعود ولكنه انهزم في هذه المعركة. ثم بدأ التفكك يسري في هذه القبيلة العربية الكبيرة، فثورات متتابعة من سكان الإحساء عليهم ودسائس فيما بينهم وانقسام تلو انقسام، حتى اضطروا لترك الاحساء وشأنها والهجرة إلى ربوعهم الأولى في الشمال، وكان آخر عهد هذه القبيلة بحكم الساحل عام ١٢٠٨هـ (١٧٩٤م).

إلى كنف هذه القبيلة وعند حصنهم المطل على جون الكويت هاجرت أسرة آل الصباح فيمن هاجر من أوائل الأسر التي كانت النواة للكويت الحالية. وقد كان آل الصباح يقطنون الهدار بنجد قبل أن يهجروها مع أبناء عمومتهم آل خليفة (حكام البحرين الحاليين) إلى قطر حيث رحب بهم أمراؤها آل مسلم. إلا أنه دب خلاف فيما بينهم ركب على أثره الصباح والخليفة السفن إلى شمال الخليج حيث نزلوا الأراضي العراقية. ولكن السلطات التركية أمرتهم بالنزوح فعادوا إلى سفنهم التي أقلتهم إلى الصبية التي تبعد عن مدينة الكويت حوالي ١٦ ميلا، وهناك وقعوا في متاعب من الظفير الذين يقطنون فيها، فهاجروا هجرتهم الأخيرة إلى كويت بني عريعر. وبدأت الكويت قرية صغيرة استوطنها العتوب وهم قبيلة عنزة التي إليها ينتسب الصباح والخليفة والسعود، وأخذ نجم سيطرة بني خالد في الأفول وفي أواسط القرن الثامن عشر انتخب أهل هذا البلد الصغير أول أمير لهم وأول حاكم للبلدة، رأس الأسرة الحاكمة بالكويت حاليا الشيخ صباح الأول.

ويبدو أن العمران سرى سريعا في هذه المدينة لموقعها الهام ولهمة سكانها الجدد وللظروف التي قامت في المنطقة وحواليها. إذ عندما حاصر الفرس مدينة البصرة واحتلوها من سنة ١٧٧٦ ـ ١٧٧٩م هاجر كثير من أهالي البصرة إلى الكويت وتحولت إليها المراكب التي

تنقل البضائع من الهند لتنقل منها برا إلى بغداد وحلب ودمشق وأصبحت الكويت في هذه الفترة مركزا للتجارة بدلا من البصرة. لقد كان ذلك استهلالا مشجعا لمدينة ناشئة. وأهل هذا الساحل منذ القدم رجال يعرفون البحر ودخائله، سواء الإفادة منه في التجارة أو استخراج اللؤلؤ من أغواره. يقول السائح الدنمركي نيبور الذي مر بالكويت في أواسط القرن الثامن عشر إنها كانت مدينة تجارية عامرة يبلغ سكانها عشرة آلاف نسمة يملكون ثمانمائة مركب.

وفي الوقت الذي كانت فيه مدينة الكويت تخط السطور الأولى في كيانها المادي كان وسط الجزيرة العربية يغلي بالأحداث، وكانت الحركة الوهابية تبدأ بداية فيها شدة وعنفوان، وبدأت تدخل شعارات جديدة في غزوات القبائل، وبدأ ثنائي محمد بن عبدالوهاب ـ وآل سعود يعمل في تسيير دفة الصراع من الدرعية. وأصبح كل ركن في الجزيرة لا يخضع لهذا الثنائي واجب حربه وإخضاعه وإلباسه، إن بالرفق، وإن بالقوة، ثوب الدعوة الجديدة.

ولم يشعر الكويتيون منذ بدء الحركة بميل إلى الدخول فيها، كما أنهم لم يناوئوها باعتبارها حركة دينية. إذ لم يكن بالكويت من الأضاليل والخرافات ما يمكن أن تهدف إليه الحركة الجديدة بالهدم والتغيير، كما لم تكن هناك رغبة عند الكويتيين في الدخول ضمن الإطار السياسي الجديد لهذه الحركة طواعية. ورغم إدراك آل سعود إذ ذاك لأهمية الكويت باعتبارها ميناء تموين لنجد فإن المعارك المتتالية داخل نجد وحولها شغلت الدرعية عن الكويت إلا في مناوشات صغيرة قامت بين الكويت ونجد في عام ١٧٩٣ (١٢٠٨هـ) وعام ١٧٩٦ (١٢١١هـ). وقد أحس الإنجليز بحرج الموقف بين البلدين فحاولوا استغلاله وعرضوا في سنة ١٨٠٥م

وضع الكويت تحت حمايتهم لكي يجنبوها هجمات الإخوان الوهابيين، ولكن الأمير عبدالله الأول حاكم الكويت إذ ذاك لم يمكنهم من الإفادة من هذه الفرصة. وتوالى المد والجزر في كفاح آل سعود الحافل مع القوى المحلية في الجزيرة ومع القوى الوافدة من خارج الجزيرة، حتى صفت المياه بين حكام الكويت في مطلع القرن الحالي وبين أسرة آل سعود عندما واجهوا عدوا مشتركا هو عبدالعزيز آل الرشيد. كان المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود بالكويت إذ ذاك. وفي سنة ١٩٠١ خرج منها في ثلة من الجند لاستعادة ملك أبيه من ابن الرشيد فتم له ذلك ودخل مدينة الرياض في ١٥ يناير ١٩٠٢ فكان هذا بداية نشأة المملكة العربية السعودية الشقيقة. وفي العام هذا ذاته ولد بالكويت جلالة الملك سعود عاهل المملكة العربية السعودية.

كانت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر هي الحاكمة لهذا الجزء من الساحل العربي فعلا أحيانا واسما في أغلب الأحايين، وكان الوالي بالبصرة هو المسؤول عن شؤون ساحل الخليج العربي. ومنذ قامت الكويت لم يكن للأتراك أي صلة بها من قريب أو بعيد إلا بعد تولي الأمير عبدالله الثاني الحكم عام ١٨٦٦ حيث رفعت الكويت العلم التركي(١)، رغم أنه لم يطأ الكويت قدم جندي تركي واحد قبل أو بعد

---

(١) استمر رفع الكويت للعلم التركي إلى مطلع الحرب العالمية الأولى عندما ضربت سفينة حربية بريطانية يختاً كويتياً باعتباره من سفن الأعداء لرفعه العلم التركي فاستبدلت الكويت به علمها الحالي: رقعة حمراء ذات قاعدة بيضاء وفي وسط الرقعة الحمراء كلمة (كويت). اضافة من (الناشر): صدر القانون ٢٦ لسنة ١٩٦١ بشأن العلم الوطني لدولة الكويت وأصبح ذا أربعة ألوان: الأسود، الأخضر، الأبيض، والأحمر.

هذا التاريخ. وفي عام ١٨٧١ أقنع مدحت باشا والي بغداد أمير الكويت بمساعدته في غزو الإحساء فأنجدها بأسطول بحري قاده بنفسه وبحملة برية وكل أمرها إلى إبنه مبارك.

والحديث عن مبارك الصباح وعهده حديث يطول. ويمكن اعتبار عهد مبارك هو بدء تاريخ الكويت الحديث.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت الكويت تظهر على مسرح الحياة في المنطقة بصورة قوية واضحة فقد سادها العمران وغدت ميناء مرموقا في الخليج كله وأصبحت مطمعا للقوى المجاورة. يقول عنها المؤرخ الإنجليزي بالجريف Palgrave وقد زارها عام ١٨٦٢ «إن البحارة في هذه المدينة يمتازون بالمهارة والشجاعة ومتانة الخلق. إن مدينتهم التي لم تكن شيئا يذكر منذ خمسين عاما قد أصبحت الآن أهم ميناء في شمالي الخليج. ويتمتع حاكمها بسمعة طيبة في الداخل والخارج. وجو الكويت طيب صحي والسكان مسالمون والضرائب ضئيلة. كل هذه العوامل مضافا إليها صلاحية الميناء للرسو جذبت الى الكويت مئات السفن التي كانت ترسو قبل ذلك في ميناءي البصرة وأبو شهر».

تولى حكم الكويت في هذه الفترة الشيخ عبدالله الثاني مدة ٢٦ عاما، وعندما توفي عام ١٨٩٢ خلفه أخوه محمد مستعينا بأخ له اسمه جرّاح. وكان محمد طيب القلب محبا للدعة والراحة يشاركه في هذه الصفات أو بعضها أخوه جرّاح، ويختلف معهما كل الاختلاف فيها أخ لهما ثالث اسمه مبارك، كان يتطلع إلى الحكم والسلطة وتوسيع رقعة الإمارة، وكان يحب الحرب والمغامرة حبه للاستمتاع بمباهج الحياة. وكان يؤمن بالوصول إلى الهدف من أقرب الطرق مهما كانت وعورتها... وكانت نتيجة حتمية أن يقوم بين مبارك وأخويه خلاف

مستمر سببه الظاهر هو الحصول على المال الذي يضن عليه أخواه به، أما أسبابه الأخرى فإن أهمها ولا شك طموح مبارك إلى الحكم ورغبته في السيطرة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن انجلترا كانت على علم بهذا الخلاف بين الإخوة علمها بطموح مبارك وأمانيه الكبار وأنها كانت تغذي هذا النزاع وتشجع مباركاً للإنفراد بالحكم دون أخويه. وأقدم مبارك على خطوته الحاسمة وبطريقته الخاصة فقضى على أخويه في منتصف ليلة ١٧ مايو سنة ١٨٩٦ وانفرد بالحكم واضعا الجميع أمام الأمر الواقع. إلا أن صديقا حميما للقتيلين وعدوا تقليديا لمبارك هو أحد كبار رجال البلد ومستشار الأمير محمد، يوسف بن ابراهيم فر إلى البصرة مستنجدا بواليها حمدي باشا. ولكن مباركاً كان أدهى منه إذ وطد علاقته برجب باشا والي بغداد وصديقه الذي يثق به، وعندما رفع الأمر إلى الباب العالي بالآستانة ما كان عليه إلا أن يجد مخرجا يترك فيه الأمور إلى ما صارت إليه إذ أرسل إلى مبارك يطلب منه أن يقبض على القاتل ويرسله مخفورا الى البصرة فرد مبارك متهما يوسف بن إبراهيم بقتل محمد وجراح ومؤكدا ولاءه للسلطان وللدولة العثمانية. وكان هذا غاية ما تبتغيه السلطنة التي ردت عليه سنة ١٨٩٧ مؤكدة إقراره على المشيخة ومانحة إياه لقب باشا قائم مقام وبذلك اطمأن مبارك من جانب الأتراك ولو إلى حين، رغم دسائس الداهية يوسف بن إبراهيم المقيم على حدوده في العراق. ولكنه في الوقت ذاته كان يدرك العوامل التي تسير السياسة التركية في المنطقة كما يدرك الخطر الكامن وراء ظهره والمتمثل في أعدائه الألداء آل الرشيد بنجد الذين طالما تحرشوا به وهم في الوقت ذاته حلفاء الأتراك ومؤيدوهم. تذكر المصادر البريطانية أن مباركا طلب حماية انجلترا عام ١٨٩٧ أي بعد توليه الحكم بعام واحد وفي نفس العام الذي اعترفت له تركيا بالمشيخة. فإذا صح ذلك فإنه قد يكون السبب في إرسال تركيا إحدى سفنها الحربية عام ١٨٩٨ إلى الكويت طالبة من

مبارك مغادرتها إلى الآستانة ليكون عضوا في مجلس شورى الدولة أو مغادرة الكويت إلى بلد آخر يختاره مع وعد السلطان (عبدالحميد) بدفع راتب شهري له قدره خمسون جنيها ذهبيا. . . ولعل هذا هو السبب المباشر الذي حدا بمبارك أن يطلب العون صريحا من انجلترا في وقت كانت فيه انجلترا على قناعة تامة بأهمية تدخلها السريع في شؤون المنطقة كما كانت في موقف يعطيها الحق في أن تفرض ما تريد من شروط. وبناء على طلب الشيخ مبارك وصلت إلى الكويت قطعة بحرية قوية أنذرت القطعة التركية بمغادرة الميناء فغادرته فوراً. وفي ٢٣ يناير ١٨٩٩[١] وقعت المعاهدة أو الإتفاقية الأولى بين انجلترا والكويت.

ويمكننا تلخيص الأسباب والظروف التي أدت إلى هذه الاتفاقية فيما يلي:

١ - موقف الأتراك الذي نشأ من الدسائس ومن فساد النظام التركي في الحكم ومن تخوف الأتراك من ممالأة مبارك للإنجليز.

٢ - تخوف مبارك من مساعي يوسف بن إبراهيم للكيد به سواء بمهاجمة الكويت مباشرة أو بتحريض الأتراك أو سواهم.

٣ - تهديد عبدالعزيز الرشيد الدائم للكويت ومهاجمته لها.

٤ - منح الأتراك للألمان امتياز مد خط برلين ـ بغداد الحديدي الذي ينتهي عند الكويت مما أقلق الإنجليز. وقد كان اللورد كرزن نائبا للملك بالهند، وسياسة الخليج تتبع إذ ذاك الإدارة الهندية، وكان اللورد كرزن عليما بسير الأمور في الخليج ومدركا لأهميته باعتباره مفتاح الهند، لذلك فقد كان حريصا على ألا

---

(١) تم في ١٩ يونيو ١٩٦١ إلغاء هذه الاتفاقية وبذلك استعادت دولة الكويت استقلالها التام (الناشر).

تسيطر دولة غير انجلترا على سواحل الخليج. وهو الذي أصدر أمره للكولونيل ميد المقيم البريطاني في أبوشهر لعقد الإتفاقية.

٥ - الشكوك التي ساورت بريطانيا بأن الروس كانوا ينوون إقامة ميناء أو محطة للفحم في الأراضي الكويتية. يقول سير آرنولد ولسون في كتابه «الخليج الفارسي» (وكانت تبذل محاولات للحصول من الباب العالي باسم «الكونت كابنست» روسي التبعية على امتياز لإنشاء سكة حديد تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسي، ولو تحقق هذا المشروع لكانت نتيجته خلق حقوق اقليمية للروس بالكويت) ثم يقول «ورغبة من الحكومة البريطانية في الحيلولة دون تنفيذ المشروعات الروسية فقد ارتبطت باتفاقية مع الشيخ مبارك شبيهة بالإتفاقية التي سبق عقدها مع سلطان مسقط سنة ١٨٩١. وقد ثار الأتراك لهذه الاتفاقية وحاولوا تأكيد وجودهم بالكويت غير أن هذه المحاولة من جانبهم قوبلت بمعارضة الشيخ الذي ظل أمينا لاتفاقه مع بريطانيا».

هذه هي الظروف التي أحاطت بعقد أول اتفاقية بين بريطانيا والكويت (إتفاقية رقم ٣٦) وهي الإتفاقية التي قامت على أساسها العلاقات البريطانية الكويتية فترة طويلة من الزمن. وهي اتفاقية لها مضمون صريح وآخر خفي، أما المضمون الصريح فهو ما تنص عليه كلماتها الآتية «إن الشيخ مبارك بن الشيخ صباح بكامل حريته، يرغب أن يربط ويلزم نفسه وورارثيه في الحكم بألا يستقبل أي وكيل لأي سلطة أو حكومة في الكويت أو في أي مكان آخر من حدود مقاطعته بدون الموافقة السابقة من الحكومة البريطانية. وهو بالإضافة إلى ذلك يلزم نفسه وورارثيه وخلفه في الحكم بألا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يعطي للإستغلال لأي غرض كان أي جزء من مقاطعته لأي حكومة أو

رعايا أي سلطة بدون الموافقة المسبقة من حكومة صاحبة الجلالة. وهذه الإتفاقية تمتد لأي جزء من المقاطعة التابعة للشيخ مبارك والذي قد يقع الآن في حوزة رعايا أي حكومة أخرى...» هذا المضمون الصريح يعطي حقوقا واضحة لبريطانيا دون أن يشير إلى ما تقدمه بريطانيا مقابل ذلك لشيخ الكويت. ويبدو أن ما يأخذه الشيخ مبارك مقابل ذلك كان واضحا لدى الطرفين لا يحتاج - في رأيه - إلى نص. وهو ما أشرنا إليه بأنه المضمون الخفي للاتفاقية:

١ - دخول الكويت في الحماية البريطانية.

٢ - اعتبارها إمارة مستقلة في شؤونها الداخلية.

٣ - تثبيت النظام القائم باعتبار الشيخ مبارك الحاكم الشرعي للبلاد وحصر وراثة الحكم في نسله.

ولقد سارت الأمور وفق هذا التفسير فيما بعد فاعتبرت بريطانيا الكويت محمية مستقلة (Independent Protectrate) تتبع وزارة الخارجية البريطانية لا وزارة المستعمرات. ولم تتدخل بريطانيا بصورة سافرة في شؤون الكويت الداخلية إلا فيما قد يمس مصالحها الاقتصادية، وأصبح من المعروف أن وراثة الحكم مقصورة على الرجال من صلب مبارك.

وقد حافظ الشيخ مبارك على تنفيذ نصوص الإتفاقية عند أول محك لها ففي مطلع سنة ١٩٠٠ جاء الكويت القنصل الألماني «ستمريخ» من الآستانة على رأس بعثة مساحة لخط حديد برلين - بغداد، وأراد مفاوضة الشيخ مبارك لتحديد موقع نهاية الخط عند جون الكويت، ولكن الشيخ مبارك لم يتفق معه تنفيذا لنص اتفاقه مع الإنجليز. كما أن بريطانيا أرسلت بارجة حربية لحماية الشيخ مبارك في العام التالي عند هزيمته في معركة «الصريف» مع عبد العزيز الرشيد (١٧ مارس ١٩٠١) وذلك أن الشيخ مبارك أراد القضاء على خصمه العنيد فذهب مع جيش

قوامه عشرة آلاف مقاتل إلى نجد لحربه. وفي معركة حامية خسر مبارك وجيشه وعادت الفلول إلى الكويت. وأراد ابن الرشيد، تساعده قوة تركية، مهاجمة الكويت واحتلالها ولكنه اضطر إلى الإنسحاب هو والأتراك حسب إنذار البارجة البريطانية الراسية في الميناء.

لقد أشرنا آنفا إلى اهتمام اللورد كرزن نائب الملك في الهند بالخليج، وبالكويت بصفة خاصة. وكان من مظاهر اهتمامه زيارته لها عام ١٩٠٣ وما تبع هذه الزيارة من تعيين أول معتمد بريطاني في الكويت هو الكولونيل نوكس (يونيو ١٩٠٤) وتتبع دارالمعتمد البريطاني في الكويت كبير المعتمدين في الخليج ويطلق عليه لقب رئيس الخليج أو المقيم السياسي البريطاني وكان مقره أبو شهر ثم انتقل إلى البحرين ولا يزال[١].

وتوالت الإتفاقيات بين الكويت وبريطانيا في عهد الشيخ مبارك، وأغلبها على شكل مراسلات بين الطرفين وكان أهمها إتفاقية الزيت (اتفاقية رقم ٤١ - ٢٧ أكتوبر ١٩١٣) إذ كتب الشيخ مبارك في رسالة إلى سير برسي كوكس المقيم السياسي بالخليج «.. إنه من المرغوب فيه أن تقوموا بإخبار الحكومة البريطانية بأننا نوافق على قدوم معالي أمير البحر.. وإذا ما شرف بلدنا سأرسل معه أحد أبنائي ليكون في خدمته وليريه المحل الذي به القار بالبرقان وغيره، وإذا رأوا أن هناك أملا في الحصول على الزيت هناك فإننا لن نمنح أي امتياز في هذا الأمر لأي أحد عدا ذلك الشخص الذي تعينه الحكومة البريطانية..».

---

(١) باستقلال دول الخليج العربية أقامت المملكة المتحدة علاقات دبلوماسية معها على مستوى السفارات. (الناشر).

وفي سنة ١٩١٣ أيضاً اتفقت بريطانيا وتركيا على أن تتنازل الثانية عن حقوقها في قطر والبحرين ومسقط وعمان والكويت، وأن تتولى بريطانيا الخفارة والإنارة في الخليج. وبذلك اعترفت تركيا بالاتفاقيات التي تمت بين بريطانيا والكويت، وأن الكويت قضاء مستقل في أموره الداخلية تابع للدولة العثمانية وتحت حماية الإنجليز.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ لم تثر كثير اهتمام في الكويت، إلى أن دخلت تركيا الحرب، فمال إلى نصرتها والعطف عليها الأهلون، ولكن الشيخ مبارك كان بعيد النظر عارفا بميزان القوى في المنطقة فلم يتردد في تقديم ما يمكنه من المساعدة للإنجليز، أمدهم بالسفن والرجال والسلاح إسهاما في احتلالهم للبصرة. وقد تلقى الشيخ مبارك كتابا من رئيس الخليج تاريخه ٣ نوفمبر ١٩١٤ يشكره فيه نيابة عن حكومته على ولائه واستعداده للمساعدة ويطلب منه الإسهام مع القوى العربية الأخرى في تحرير البصرة، ويعده مقابل ذلك:

١ - أن تبقى أملاكه وأراضيه الزراعية بالبصرة ملكا له ولورثته وأنها ستعفى من أي ضريبة.

٢ - أن الحكومة البريطانية ستحميه من كل ما ينجم من احتلاله للأراضي شمال الكويت.

٣ - توافق الحكومة البريطانية وتعترف أن مشيخة الكويت حكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية.

في هذا الخطاب نجد لأول مرة ذكراً صريحاً لحماية بريطانيا للكويت وعرضاً من بريطانيا للحماية، ولا نجد موافقة أو رفضا من جانب الكويت.

في ٣ نوفمبر ١٩١٥ مات الشيخ مبارك بعد أن صنع من الكويت

إمارة مزدهرة وجعل منها بلداً مرموقا في ميدان السياسة والاقتصاد، ونقلها من العزلة التامة إلى المشاركة الفعلية في الأحداث.

تولى الإمارة بعد مبارك ابنه جابر ومكث في الحكم عامين تولاه بعده أخوه سالم، وكان رجلا صلب الرأي شديد المراس، إلا أنه كان قليل الدراية بالسياسة ومتطلباتها، فساءت علاقته مع ابن السعود والذي بدأ يبني سلطته بحزم وسرعة. كما ساءت علاقته مع بريطانيا من جهة أخرى، علما بأنها أرسلت له (ولسلفه) فور توليهما الحكم أنها على استعداد لتقديم المعونة واستمرار الحماية إذا استمرا على نهج والدهما في علاقتهما مع بريطانيا. وفي فبراير ١٩١٨ ضربت بريطانيا حصاراً اقتصاديا على الكويت استمر إلى حين توقيع الهدنة مع تركيا. وأدت العلاقات السيئة بين الكويت وابن السعود إلى نشوب معركتين عنيفتين الأولى معركة «حمض» سنة ١٩١٩ انتصر فيها الوهابيون، واضطر تخوف الكويت من هجومهم إلى بناء سور الكويت لحماية مدينتهم من هجمات الوهابيين عام ١٩٢٠ والثانية معركة الجهرة (أكتوبر ١٩٢٠) حيث قاد فيصل الدويش أحد قادة الوهابيين الأشداء جيشاً لاحتلال الكويت، ولكنه بعد معركة شديدة في الجهرة انسحب إلى نجد بعد أن كبد جيش الكويت خسائر شديدة.

ولقد يبدو من الغريب أن تقوم هذه الحروب والمنافسات بين الكويت وآل سعود رغم العلاقات المتينة التي تربط الأسرتين الحاكمتين، ورغم صلة عبد العزيز آل سعود الشخصية بالكويت ونشوئه فيها وعطف مبارك عليه حتى أنه كان يدعوه بإبنه. لقد بدأ الخلاف فور نجاح الأمير عبد العزيز في احتلال الرياض، وهو رجل يؤسس ملكا ويبني دولة له مطامح لا تحدها حدود وهمّة لا تعرف الكلل. والعواطف لا محل لها في السياسة. وكان مبارك لا يقل عنه

طموحا وهمّة. فكان لابد من الإصطدام والنزاع، ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه في عهد الشيخ سالم. أذكاه النجاح الذي صادفه ابن سعود من جهة، والإستهانة التي واجه سالم بها خطر هذا النجاح من جهة أخرى.

جرت بعد هذه المعارك والمناوشات محاولات للصلح وسافر وفد من الكويت لمقابلة ابن السعود في الرياض عام ١٩٢١ وعلى رأسه الأمير أحمد بن جابر ابن أخي الحاكم، وأثناء المحادثات جاء الخبر بنعي الشيخ سالم (فبراير ١٩٢١) فرأى السلطان ابن سعود أن المشكلات القائمة بين البلدين قد حلت بوفاة خصمه. وعاد الشيخ أحمد أميراً للكويت (٢ مارس ١٩٢١) حيث مكث في الحكم ثلاثين عاما عاصر في أواخرها النهضة الجديدة في الكويت. وقد كان من أهم ما عني به أول الأمر هو إزالة سوء التفاهم بين الكويت وابن السعود. وقد حددت الحدود بين البلدين عام ١٩٢٢ وعقدت ثلاث اتفاقيات أخرى ما بين البلدين في مارس ١٩٤٠ (١) لحسن الجوار والصداقة، (٢) للتجارة، (٣) لتسليم المجرمين.

وفي سنة ١٩٢٣ اعترفت بريطانيا بالحدود بين الكويت والعراق. وفي سنة ١٩٢٥ بدأت بريطانيا تزاول القضاء بنفسها بالنسبة للرعايا البريطانيين والأجانب. (وقد ألغي هذا الامتياز في ٢٥ فبراير سنة ١٩٦٠. بمناسبة عيد الجلوس العاشر لسمو الأمير الحالي)[(١)].

في هذه الفترة اكتشف البترول بالكويت، وبدئ في تنظيم الإدارة على أساس حديث، وأنشئت المدارس وأرسلت البعثات للخارج،

---

(١) وكان قد صدر مرسوم بشأن تنظيم القضاء في العام ١٩٥٩ تحت الرقم ١٩ في عهد المغفور له صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير دولة الكويت الأسبق. (الناشر).

وجرت محاولات لإشراك الشعب في الحكم بوساطة المجالس المعينة أو المنتخبة.

توفي الأمير المرحوم أحمد الجابر في ٣٠ يناير سنة ١٩٥٠ فتولى الحكم ولي عهده وابن عمه الشيخ عبدالله السالم الصباح حاكم الكويت الحالي.[١]

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أمير دولة الكويت الأسبق المغفور له صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح منشئ دولة الكويت الحديثة راجع: د. أحمد البغدادي، الشيخ عبدالله السالم انساناً ورجل دولة، ط١، الكويت، دار قرطاس للنشر والتوزيع، ١٩٩٤ (الناشر).

لمزيد من البحث

١ - مجلة المشرق ـ العدد العاشر من السنة السابعة ـ مقال للأب انستاس ماري الكرملي.

٢ - تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقته بالأقطار الإسلامية والعربية للأستاذ عباس العزاوي.

٣ - لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب ـ مخطوط بالمتحف البريطاني بلندن.

٤ - كاظمة في الأدب والتاريخ ـ السيد يعقوب يوسف غنيم.

٥ - تاريخ الكويت للشيخ عبدالعزيز الرشيد ـ جزآن.

٦ - ابن عريعر ـ مقال للسيد أحمد البشر في مجلة الرائد الكويتية العدد الأول السنة الأولى (مارس ١٩٥٢).

٧ - الكويت، زهرة الخليج العربي للزعيم محمود بهجت سنان.

٨ - Aitchison. C.U. A Collection of Treaties, Engagements and Sanads. Vol. XI.

٩ - ملوك العرب للأستاذ أمين الريحاني.

١٠ - أيام الكويت للأستاذ أحمد الشرباصي.

الفصل الثالث

لمحة عن جغرافية الكويت

إمارة الكويت جزء من الوطن العربي.[1] تقع في الركن الشمالي الغربي من الخليج العربي. شمالها العراق وجنوبها وغربها المملكة العربية السعودية وشرقها الخليج العربي. يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب، في أقصى اتساعه ـ نحو ٢٢٠ كم ومن الغرب إلى الشرق نحو ١٥٠ كم وتكوّن بذلك نصف دائرة في الصحراء تطل على جون الكويت وعلى الخليج، وهي بهذا الوضع جزء طبيعي من الجزيرة العربية وباب من أبوابها.

وتبلغ مساحة الكويت نحو ١٥ ألف كيلو متر مربع[2] (حوالي ٦٠٠٠ ميل مربع) خلاف المنطقة المحايدة التي تبلغ مساحتها حوالي ٥٧٠٠ كم مربع، وهي منطقة واقعة بين الكويت والمملكة العربية السعودية، تمارس البلدان فيها نفس الحقوق حسب اتفاقية العقير للحدود المنعقدة بين نجد والكويت عام ١٩٢٢.

والقسم الأكبر من سطح الأرض بالكويت يتكون من الحصباء

---

(١) وفقًا لنص المادة الاولى من دستور ١٩٦٢: الكويت دولة عربية مستقلة ذات سيادة تامة، ولا يجوز النزول عن سيادتها أو التخلي عن أي جزء من أراضيها. وشعب الكويت جزء من الأمة العربية. (الناشر).

(٢) المساحة الحالية لدولة الكويت بعد تقسيم المنطقة المحايدة مع المملكة العربية السعودية تبلغ ١٧,٨١٨ كم^{٢}. (الناشر).

والرمال التي سفتها الرياح من الصحراء، وتحت هذه الرمال طبقة من الصخور الرملية الكلسية. وتوجد هذه الصخور على سطح الأرض في الجهة الجنوبية وفي الجهة الشمالية من الكويت بينما توجد صخور رملية أقدم منها على الشواطئ الشمالية من خليج الكويت وفي منطقة البرقان جنوبي مدينة الكويت. وتكثر في المنطقة الأخيرة هذه الصخور المشبعة بالقار، أما في الشمال فتوجد الصخور المشبعة بالغاز.

وينحدر السطح بالكويت انحداراً تدريجياً من الغرب إلى الشرق في اتجاه «خور الصبيّة» على شكل تموجات خفيفة متباعدة. والشاطئ منخفض بوجه عام والمياه قربه ضحلة، وتظهر حركة المد والجزر بوضوح شديد وبالأخص في الجون الذي يمتد شمالي مدينة الكويت على شكل هلال، ويبلغ اتساعه عند المدخل حيث تقع جزيرة فيلكا نحو ١٢ ميلاً ولمياهه الفضل كل الفضل في جعل مدينة الكويت ميناء بحرياً هاماً. وأعلى أجزاء الكويت هو الركن الجنوبي الغربي وهو سهل متسع يعرف باسم «الدبدبة» ويحتوي على كثير من النبات الصالح لرعي الإبل. وإلى جانب السهول والتلال الصغيرة المنتشرة في أرجاء الكويت توجد كثير من المجاري الصغيرة الجافة والأودية. وأشهر الوديان وادي الباطن وهو جزء من الوادي الكبير «وادي ذي الرمّة» الممتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وهو ملتقى الحدود العراقية الكويتية. وإذا ما هطلت الأمطار شتاء فإن المياه تنحدر وتتجمع في أحواض منخفضة تملأ بالمياه لمدة قد تطول وقد تقصر ثم تجف بسبب شدة التبخر وقلة الكمية. وعندما تتسرب تكون آباراً قريبة من السطح يميل ماؤها إلى العذوبة أحياناً وإلى الملوحة أحياناً أخرى ويكثر حولها النبات. وهذه المناطق تصلح لأن تكون مناطق تجمعات بشرية في بعض أجزاء السنة.

وفي الخليج توجد بضع جزر تابعة للكويت وهي من الشمال إلى

الجنوب: وربة وبوبيان ومسكان وفيلكا وعوهة وكبّر وقاروه وأم المرادم. وأهمها من الناحية الاقتصادية والبشرية فيلكا، إذ أنها الجزيرة الوحيدة المأهولة بالسكان والمتوافرة فيها المياه والتي ثبت أنها كانت عامرة منذ أقدم العصور.

تقع الكويت بين خطي عرض ٢٨°، ٣٠° من العروض الشمالية، ومعنى هذا أنها تقع في المنطقة المعتدلة الدفيئة، كما أنها في الوقت نفسه تعتبر جزءاً من النطاق الصحراوي الكبير الممتد من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي. ولهذا كان المناخ متأثراً بظروف الكتلة الصحراوية أكثر مما هو متأثر بظروف الخليج العربي الضيق، ولهذا كان مناخها في الصيف حاراً عديم المطر، تصل حرارة النهار فيه إلى ٥٠ درجة مئوية عند الظهر ولكنها تنخفض في الليل انخفاضاً كبيراً عنها في النهار بحيث ينعم الناس بليال مريحة في الغالب. أما في الشتاء فقد تصل درجة الحرارة في شهر يناير إلى ١٥ درجة مئوية بينما قد تهبط في الليل إلى ما يقرب من الصفر المئوي. وبالرغم من قلة الرطوبة في صيف الكويت مما يجعل مناخها صحياً بالنسبة للامارات العربية الأخرى في الخليج إلا أن الرطوبة قد تكثر في سبتمبر بصورة خاصة. ويبلغ متوسط المطر السنوي حوالي ٤ بوصات وتهطل الأمطار في الشتاء. ويمكن اعتبار الكويت من حيث المناخ منطقة انتقال بين الإقليم الصحراوي وإقليم البحر المتوسط.

وبسبب هذه الأحوال الطبيعية فإن النباتات التي تنبت في الكويت هي تلك التي تتحمل الجفاف وقلة المياه وهي تشمل الحشائش والأعشاب والشجيرات الصغيرة التي تستفيد لأقصى درجة من الأمطار القليلة، ومن الندى أيضاً. وهناك عدة أنواع من النباتات التي تتحمل ملوحة التربة في عدة مناطق منخفضة وهي بذلك تميز التربة التي تنمو

فيها. وتكتسي صحراء الكويت بحلة خضراء خلال فصل الربيع بعد انتهاء فصل الأمطار ويتحسن الجو إلى درجة كبيرة وهو أجمل فصول السنة بالكويت. أما الزراعة فتوجد في مساحات قليلة محدودة حول بعض القرى كالجهرة والفنطاس[1]، وأهم ما يزرع البرسيم وبعض الخضروات، وتعد قرية الجهرة خير مثال للواحة في البيئة الصحراوية ففيها النخيل وتعتمد الزراعة فيها على الآبار الضاربة مياهها للملوحة. وقد كانت الكويت في أول نشأتها تعتمد على مثل هذه الآبار للشرب وعندما زاد السكان لم تعد هذه الآبار كافية لهم فأخذوا يستوردون الماء بالسفن الشراعية من شط العرب. وبعد اكتشاف البترول أُنشئت مصاف ضخمة لتحويل مياه البحر إلى مياه عذبة وتعتبر هذه المصافي أكبر مصاف من نوعها في العالم وتنتج أكثر من أربعة ملايين جالون يوميا تكفي للشرب ولري الحدائق الخاصة والعامة ولتشجير الشوارع. وقد كانت هناك مفاوضات منذ أمد بعيد بين الكويت والعراق لمد أنابيب أو ترعة من شط العرب الذي لا يبعد أكثر من ١٥٠ كيلومتراً عن الكويت لجلب المياه إلى الكويت وقد مسح المشروع وأعد للتنفيذ ولكنه في كل مرة يتعثر لأسباب غير واضحة. وإذا قدر لهذا المشروع أن يتحقق في المستقبل القريب فإنه ولا شك سيغير من وجه الكويت وسيعود بالنفع الوفير، ليس على الكويت وحدها، و لكن على الجزء من الأراضي العراقية الذي سيمر فيه وسيكون مجالا لكثير من الأيدي العاملة من أبناء العراق الشقيق وسيخفف من أخطار الفيضان على جنوبي العراق المجاور للكويت.

---

(١) لم تعد الجهرة والفنطاس قريتين، فالجهرة اليوم مدينة عامرة، وهي مركز محافظة الجهراء التي يقطنها ٢٤١٢٨٥ نسمة وفقاً لتعداد ١٩٨٥ .(الناشر).

لقد تكاثر سكان الكويت بمن نزح إليها من الأقطار المجاورة، من نجد والإحساء والبحرين وجنوبي العراق وساحل فارس العربي وعُمان ، يبلغ عدد السكان حسب الاحصاء الرسمي الأول الذي تم عام ١٩٥٧ (٢٠٦١٧٧)[١] نسمة وهم الآن أكثر من هذا العدد بطبيعة الحال بسبب النمو الطبيعي من جهة وبسبب الهجرة إلى الكويت ابتغاء الكسب والعمل. وبالكويت عدد من الجاليات الأجنبية أهمها من حيث الكثرة الجاليات الإيرانية والباكستانية والهندية والإنجليزية والأمريكية.. والأولوية في العمل في الحكومة أو في الشركات بعد الكويتي هي لأبناء العرب من الأقطار الشقيقة. ولذا فإنك تشهد اليوم في الكويت أبناء العروبة من شتى أرجاء الوطن العربي يعملون جنباً إلى جنب في الميدان الاقتصادي وفي وظائف الدولة وفي كل مجال من مجالات العمل بالكويت. وإذا كان عدد سكان الكويت اليوم يقارب الثلاثمائة ألف نسمة فإن عدد الكويتيين منهم قد لا يزيد على مائة وخمسين ألف نسمة.

وإذا ما صرفنا النظر عن البيئة الزراعية في الكويت لكونها محدودة المجال والأثر فإننا نستطيع القول أن في الكويت ثلاث بيئات متميزة هي البيئة البحرية والبيئة الصناعية والبيئة الصحراوية. وسنتحدث عن كل من هذه البيئات الثلاث بشيء من التفصيل.

---

(١) وفقاً لتعداد ١٩٨٥ فإن عدد سكان الكويت يبلغ ١٨٧٨٠٠٠ نسمة، ووفقاً لتقديرات وزارة التخطيط للسكان في العام ١٩٩٤ فإن جملة عدد السكان تقدر بـ١٤٦٨٩٠٢ نسمة. (الناشر).

الفصل الرابع

البيئة البحرية

يرتبط تاريخ الكويت بالبحر منذ أول نشوئها، فعن طريق البحر نزح إليها أول من استوطنها. وعلى موارد البحر كان يعيش سكانها، وعلى التجارة البحرية كان معولهم. وبسبب مينائها الهادئ كان اختيارهم لهذه البقعة من الأرض، وقربها من مغاصات اللؤلؤ كان عاملاً هاماً في نموها وازدهارها فترة طويلة من الزمن، وجونها الزاخر بالأسماك طول العام كان مصدراً من مصادر الرزق لا ينضب.

لقد ورث عرب الكويت حب البحر والمهارة فيه من ضمن ما ورثوه من تراث الخليج العربي العريق في هذا الميدان، وقد عرف العرب البحر ومهروا فيه بعد الفتوحات الإسلامية بصورة خاصة فأبحروا إلى الشرق الأقصى وإلى الصين وعرفوا ممرات البحار المجاورة والبعيدة في المحيط الهندي. وكان للعرب في القرن الأول الهجري نفوذ كبير في موانئ الصين. وجالية كبيرة ذات سطوة في مدينة خانفو تدل على الكثرة والقوة. وكتب سليمان التاجر رسالة في منتصف القرن التاسع الميلادي يصور فيها رحلته من الخليج إلى الصين ويدوّن فيها أخبار بلاد الهند والصين وعادات أهلها وملوكها وطباعهم ومعاملاتهم ويتحدث في ذلك حديث العالم الخبير، وكانت الرحلة من الخليج إلى الصين تستغرق ذهاباً نحو الخمسة من الشهور. . كتب سليمان التاجر رسالته هذه قبل رحلة ابن بطوطة بأربعة قرون.

وركب المسعودي البحر من عُمان إلى شرقي أفريقيا في أوائل

القرن العاشر الميلادي فكتب عن بحر عُمان «موجه عظيم كالجبال الشواهق، يتسع وينخفض كأخطر ما تكون الأودية، لا ينكسر، ولا يظهر من ذلك زبد كسائر أمواج البحر، ويزعمون أنه موج مجنون، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان، عرب من الأزد. . .».

وقصة السندباد البحري ورحلاته تعطينا صورة تمثل روح العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه، فمن بغداد انحدر السندباد إلى البصرة فإلى الخليج ليبدأ مغامراته الخيالية في البحار.

وإلى عهد قريب كان الربابنة الكويتيون يضربون المثل في المهارة بعلم البحار بنابغة في الملاحة العربي، هو عندهم المثل الأعلى علماً وفهماً لكل ما يتعلق بالبحر من شؤون. هذا الملاح هو أحمد بن ماجد أحد الربابنة العرب الذين تركوا آثاراً عظيمة في علم الملاحة في القرن الخامس عشر. وضع حوالي أربعين مؤلفاً ورسالة في فنه، عكف عليها المستشرقون دراسة وبحثاً، وتتبعوا آثاره ونشروا مصنفاته، درس المستشرق الفرنسي جبرائيل فران جانباً من مؤلفاته ونشرها مصورة وأخرج عنها دراسة قيمة. ونشر المستشرق الروسي شوفونسكي ثلاث أراجيز له مع دراستها وترجمتها، وغيرهما من المستشرقين اهتم بهذا الملاح العظيم وأدرك خطره. ولد هذا الملاح العربي في جلفار ـ على أصح الأقوال ـ بساحل عُمان، (وجلفار هي التي تسمى رأس الخيمة الآن وكانت مدينة ملاحية عامرة إذ ذاك) ولد حوالي سنة ١٤٢٠م من والد ملاح وجد ملاح فهو قد عرف البحر وتلقى شؤونه أباً عن جد. وهو يذكر في مؤلفاته أباه وجده وما علماه إياه ويستشهدعلى صحة علم والده بحادثة جرت له عام ١٤٨٥ إذ نجا هو ومن معه في السفينة من الهلاك بفضل ما أودعه والده أرجوزته من علم، فيقول: «وكانت أرجوزة

الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المكان». . ويفتخر ابن ماجد بأهله وعشيرته في جلفار فيقول:

رعى الله جلفاراً ومن قد نشا بها وأسقى ثراها واكف متتابع

بها من أسود البحر كل مجرب وفارس يم في الشدائد بارع

وقد اقترن اسم ابن ماجد بحادث خطير، له أثره العميق في تاريخ الشرق والغرب، ذلك هو علاقته بدلالة الملاحين البرتغاليين ورئيسهم فاسكودي جاما على الطريق التي تصل أفريقيا الشرقية بالهند، فقد روى أنه قاد سفينة فاسكودي جاما في رحلة البرتغال الأولى إلى كاليكوت. وما علم ابن ماجد أنه بهذا قد بدأ صفحة خطرة من صفحات استعمار الغرب للشرق. ولو علم ابن ماجد بما سينتج عن عمله لما أقدم على ذلك، ولو توقع بعض ما حدث لما قَدَّم عمله لأعدائه، إننا نقرأ بعد ذلك في شعر ابن ماجد الكثير مما يدل على ألمه وأسفه وندمه لما قدمت يداه، عندما رأى البرتغاليين يسومون قومه الخسف ويحتلون بلاده الواحدة تلو الأخرى. . على أن هذا لا يقلل من مكانة ابن ماجد ولا يطمس من أهميته، وحسبنا تراثه العلمي الذي كان العمدة للملاحين في بحار الشرق بضعة من القرون. أهم كتبه المعروفة «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» وأرجوزة تنيف على ألف بيت أسمها «حاوية الاختصار في أصول علم البحار. . .».

وإن المتتبع لأثر المعارف العربية في توجيه الملاحة البرتغالية يدرك ما خلفته في نفوس المغامرين من الملاحين البرتغاليين والأسبان أمثال كولومبوس ودياز وفاسكودي جاما وغيرهم مما كان له أبعد الأثر فيما وصلوا إليه من أمجاد.

ومن البديهي أنه لا يمكن الفصل بين الملاحة والتجارة، إذ أن الملاحة وسيلة من وسائل نقل التجارة، ولكنها وسيلة تحتاج إلى كثير من

الفهم الصحيح للظواهر الطبيعية وخصائص البحر والفلك. وبغير ذلك لا تكون نتائجها إلا هلاكاً محققاً. . .

استورد الكويتيون أول سفنهم من ثغور الخليج الأخرى أو من الهند، ثم بنوها بأنفسهم في الكويت ومهروا في بنائها حتى أصبحت صناعة السفن إحدى الصناعات الهامة بالكويت. واكتسبت المراكب التي تبنى بالكويت سمعة عظيمة في تلك البحار، بل أنهم أخذوا يجربون في هذه الصناعة ويعدلون من الطراز الموروث حتى وصلوا إلى الطراز المألوف الآن في الخليج والذي يسمى بـ«البوم» الذي يعتبر نتيجة لتجارب الكويتيين في البحار، والذي ثبتت صلاحيته أكثر من سواه لعبور المحيط إلى الهند وسواحل أفريقيا الشرقية.

كانت الأخشاب التي تبنى منها السفن، وكذلك جميع الأدوات التي تحتاج إليها السفينة تستورد من الهند، ثم تبنى السفينة بالكويت، سواء كانت من سفن صيد الأسماك، أو سفن الغوص على اللؤلو، أو سفن الأسفار البعيدة كبيرة الحجم، فإن لكل مهنة من هذه المهن سفنها الخاصة بها. ويكاد ينقسم العام في الكويت إلى قسمين رئيسيين: الصيف حيث يكدح الناس في الغوص على اللؤلؤ أربعة أشهر بطولها، والشتاء حيث يسافرون على سفنهم الكبيرة للتجارة والنقل البحري خمسة أشهر أخرى.

وقد أطلق الكويتيون على النقل والتجارة البحرية اسم «السَّفَر» فالسفر في اصطلاحهم هو عملية نقل التجارة والبضاعة بواسطة السفن الشراعية الكبيرة التي تعمل بين الكويت وموانئ الخليج العربي والهند وسواحل أفريقيا والبحر الأحمر. ويبلغ متوسط حمولة هذه السفن حوالي ٢٥٠ طناً ترفع شراعين أو ثلاثة ويعمل فيها ٤٠ بحاراً. تبدأ السفينة رحلتها في الخريف من الكويت شمالا إلى شط العرب بشاطئيه،

ومن البصرة تنقل التمر إلى الهند أو إلى جنوبي الجزيرة العربية والصومال. وإذا ذهبت السفينة إلى جنوبي الجزيرة فإنها تتجر بين موانئها وموانئ الساحل الشرقي من أفريقيا، وقرب نهاية الموسم تعود إلى الكويت محملة بما تحتاجه البلاد من بضاعة. وإذا ذهبت السفينة إلى الهند فإنها قد تصل إلى كولومبو وخليج البنغال وجزر الهند الشرقية، وكانت السفن قبل اكتشاف البخار تذهب إلى أبعد من ذلك شرقاً. وفي جميع الظروف تعود السفن قبيل الصيف إلى الكويت لكي يعمل بحارتها في سفن الغوص على اللؤلؤ، إلا إذ حجزتها الرياح الموسمية.

لقد ازدهرت صناعة السفن بالكويت والتجارة فيها وبلغت أوجها قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى وبلغ عددها إذ ذاك ١٥٠ سفينة، وكان لا بد أن ينمو مع نمو هذه المهنة نظام اجتماعي يكفل لها الإستقرار ويحفظ فيها النظام ويهيئ لها الإنتاج. فظهر هذا النظام نابعاً من متطلبات المهنة ذاتها ومن التقاليد البحرية المتعارف عليها، ومتأثراً بعلاقة الكويت بالهند بصورة خاصة. وعندما ازداد نشاط السفن البخارية وكثر عددها في هذه السواحل بدأ نجم هذه السفن في الأفول تدريجياً، ثم انتعشت مرة أخرى خلال الحرب العالمية الثانية، وبدأ ملاكها يخضعون لسنة التطور فيحولونها من سفن شراعية إلى سفن آلية. وعندما بدئ في استغلال البترول في الكويت بعد الحرب الثانية مباشرة بدأ البحارة ينصرفون عن هذه المهنة إلى العمل في المجالات الأرضية الأوسع رزقاً والأرغد عيشاً، وأخذت صناعة إنشاء السفن تبعاً لذلك تختفي تدريجياً، حتى لم يعد بالكويت الآن من سفن السفر الكبيرة إلا القليل يعمل فيها بحارة من أبناء ساحل عُمان بينما انصرف بنّاؤو السفن الباقون إلى بناء اليخوت وسفن الصيد فحسب. ولقد أدركت معارف الكويت خطر اختفاء هذه المهنة العريقة واندثار تلك الروح البحرية التي

كانت من أهم مميزات أبناء هذا البلد، ونسيان التقاليد البحرية، وما تركته هذه المهنة من أدب شعبي وتقاليد محلية، أدركت ذلك فعقدت العزم على إنشاء مدرسة بحرية[1] تحيي هذه الروح وتنمي المواهب البحرية وتعيد للمهنة رونقها على أساس من العلم جديد، يتفق مع روح هذا العصر ويتمشى مع تطور الزمن..

ورغم أهمية النقل والتجارة البحرية في الكويت فإن هذه المهنة تعتبر ثانية بالنسبة لمهنة الغوص على اللؤلؤ التي ارتبطت بحياة الكويتيين ارتباطاً وثيقاً منذ أول نشأة الكويت. فقد عرف الغوص بالخليج منذ أزمنة قديمة واشتهر الجانب العربي منه بأنه من أحسن الأماكن التي يوجد فيها اللؤلؤ، بل إن أجمل اللآلئ في العالم هي تلك التي تستخرج من الخليج العربي، ولعل تكوين الخليج وطبيعة أرضه وضحالة مياهه ودفئها في الصيف من الأسباب التي جعلت من الخليج أشهر مغاصات اللؤلؤ في العالم. ولعل مما شجع الناس على الاستمرار في الغوص عليه صلة الخليج بالهند من أقدم العصور، إذ كانت الهند أهم سوق لبيع اللؤلؤ والإتجار فيه. وقد مارس عرب الساحل الغوص على اللؤلؤ قبل ظهور الإسلام ولا يزالون. وتفنن الشعراء في وصف المرأة بالدرة، وذكرها الأعشى وأورد أحد المغاصات المشهورة بالخليج وهو «دارين» في شعره فقال:

كأنها درة زهراء أخرجها غواص دارين يخشى دونها الغرقا

قد رامها حججاً مذ طر شاربه حتى تسعسع[2] يرجوها وقد خفقا

---

(١) بكل أسف لمّا يتحقق هذا الهدف. (الناشر).

(٢) تسعسع: كبر وهرِم.

وصورة أخرى دقيقة للغوص في أبيات للمسيب بن علس وتنسب للأعشى كذلك:

كجمانة البحري جاء بها	غواصها من لجة البحر
صلب الفؤاد رئيس أربعة	متخالفي الألوان والنجر
فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا	ألقوا إليه مقالد الأمر
وعلت بهم سجحاء[1] خادمة	تهوي بهم في لجة البحر
حتى إذا ما ساء ظنهم	ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيه بتهلكة	ثبتت مراسيها فما تجري
فانصب أسقف[2] رأسه لبد	نزعت رباعيتاه للصبر
أشفى يمج الزّيت ملتمس	ظمآن ملتهب من الفقر
قتلت أباه فقال أتبعه	أو أستفيد رغيبة الدهر
نصف النهار الماء غامره	ورفيقه بالغيب لا يدري
فأصاب منيته فجاء بها	صدفية كمضيئة الجمر
يعطى بها ثمناً ويمنعها	ويقول صاحبه: ألا تشري؟
وترى الصراري[3] يسجدون لها	ويضمها بيديه للنحر
فتلك شبه المالكية إذ	طلبت ببهجتها من الخدر

ظلت مهنة استخراج اللؤلؤ من الخليج العربي مهنة معروفة مألوفة طوال القرون تخضع في ازدهارها وتدهورها لعوامل مختلفة أهمها عامل العرض والطلب وعامل الاستقرار في المنطقة التي كثيراً ما انتابها

---

(١) سجحاء: طويلة تامة، يقصد بها السفينة.

(٢) أسقف: طويل غليظ العظام.

(٣) الصراري: الملاح

الاضطرابات والزعازع، وعلى صلة الخليج بالهند، فقد كان اللؤلؤ يصدر في القرن الماضي إلى العراق وحلب ومنها إلى مصر وتركيا وأوروبا. ثم اقتصر تصديره إلى الهند عندما سهل نقله بالبواخر السريعة، وربما قام بعض كبار التجار بتسويقه في أوروبا دون الحاجة إلى وساطة الهند. وفي مطلع هذا القرن كان عدد العاملين في الغوص بالخليج لا يقلون عن ثمانين ألف رجل. وقبيل الحرب العالمية الأولى ازدهرت هذه الحرفة وبلغ عدد السفن التي تعمل في الغوص من الكويت وحدها أكثر من ثمانمائة سفينة يقدر مجموع بحارتها بحوالي ثلاثين ألف رجل. غير أن الأزمة الاقتصادية التي جاءت عقب الحرب العالمية الأولى أدت إلى فتور متزايد في تجارة اللؤلؤ، وزاد في سوء أسواقه وتدهور أسعاره عرض اليابان لإنتاجها الكبير من اللؤلؤ المستنبت الذي يصعب التفرقة بينه وبين اللؤلؤ الطبيعي. ورغم أن هذا اللؤلؤ المستنبت قد منع استيراده إلى الخليج من أول الأمر إلا أن تأثيره في الأسواق العالمية على اللؤلؤ الطبيعي كان تأثيراً فادح الأثر. وعندما بدأ انهيار اللؤلؤ أخذ الكويتيون يتحولون تدريجياً إلى استغلال مهارتهم البحرية لمدى أبعد في سفن النقل البحري والتجارة البحرية. على أنها كانت فترة ركود اقتصادي شديد استمر عشرين عاماً تسير فيه أمور الغوص من سيئ إلى أسوأ، حتى إذا اكتشف البترول تحول من بقي في هذه المهنة إلى الأعمال الجديدة التي صحبت اكتشاف النفط. ولم يعد الآن في الكويت إلا سفن لا تزيد عن الخمس تعمل في الغوص، أصحابها هواة أكثر منهم محترفين.

ومهنة الغوص، بعد، من أكثر المهن التي مارسها الإنسان صعوبة وخطورة وشدة، فيها عناء وشظف، وفيها كدح مضن، وصاحبها يحتاج إلى الصبر الطويل حاجته إلى المثابرة التي لا يتطرق إليها الوهن أو الملل. يبدأ موسم الغوص في أوائل شهر يونيو وينتهي في أواخر

سبتمبر، وعلامة انتهاء فصل الغوص عندهم حينما يتساوى الليل والنهار. ويبلغ متوسط عمق البحر الذي يحتمل وجود محار اللؤلؤ فيه حوالي ست قامات ويبعد عن الساحل حولي ١٥ ميلًا (بالنسبة لساحل الكويت) ولا تعود سفينة الغوص إلى ميناء الكويت طوال الموسم إلا القليل النادر. ويحكم السفينة أثناء الموسم نظام دقيق يعطي الربان الذي يسمى في الخليج بـ (النوخذا) سلطة مطلقة لا تحدها حدود، كما تحكمها تقاليد بحرية عريقة وعادات متبعة أهمها الطاعة المطلقة والنظام الدقيق، ومن أهم صفات الغواصين الأمانة التامة التي يتصفون بها كبارهم وصغارهم، والثقة التي يوليها البحارة ربانهم. وينقسم العاملون على ظهر السفينة إلى قسمين رئيسيين: غاصة وسيوب. والغاصة هم الذين ينزلون في أعماق البحر للبحث عن المحار، وهم بذلك يتعرضون للأخطار الشديدة من الأسماك المؤذية كما تتأذى حواسهم من الضغط وأجسامهم من قلة الطعام. أما السيوب فإنهم الذين يخدمون على ظهر السفينة والذين يجذبون الغاصة عند خروجهم من البحر فهم أقل من الغاصة تعرضاً للمخاطرة كما أنهم أقل منزلة في مجتمع الغواصين. وعندما يوزع المحصول آخر الموسم وتستخرج مصاريف الطعام أول الأمر ثم خمس المحصول لصاحب السفينة، يعطى الغيص ثلاثة أسهم ويعطى السيب سهمين، وربما كان في السفينة مساعد يسمى الرضيف فهذا يعطى سهماً واحداً، وربما أخذ النوخذا أو بعض البحارة صبيانهم معهم لاكتساب الخبرة والخدمة على ظهر السفينة وهؤلاء ليس لهم نصيب في المحصول. أما نصيب النوخذا فهو يساوي نصيب الغيص، ولكنه كثيراً ما يأخذ مبلغاً آخر يعطيه له صاحب السفينة من خمسه.

كان انعكاس مهنة الغوص على المجتمع الكويتي واضحاً من جوانب عديدة فيه فقد ارتبطت المعاملات التجارية والرواج المحلي بهذه

المهنة ارتباطها باللؤلؤ وأسعاره، فقبيل الموسم تزدهر التجارة، وتروج الأسواق، وينشط البحارة لتزويد بيوتهم وأسرهم بما تحتاجه من غذاء وكساء، كما يفد إلى مدينة الكويت العدد الكبير من البدو الذين يلتمسون الغنى في البحر، والذين لا يتضارب رعيهم لماشيتهم زمنياً مع هذه الشهور الأربعة التي يقضونها بعيداً عنها، وبعد أن يغادر ذلك الأسطول الكبير الميناء يسود البلاد هدوء شديد، ثم يدب فيها النشاط عند انتهاء الموسم وتلبس المدينة ثوباً زاهياً بهيجا، ومن لم يفرح من النساء والأطفال بالكسب الذي جاء به رب البيت فقد فرح بأوبته سالماً، وينشط أكثر من سواهم طائفة «الطواشين» وهم تجار اللؤلؤ، يذهب بعضهم أثناء الموسم بسفينته إلى المغاصات ذاتها لشراء اللؤلؤ وينتظر آخرون عودة الغواصين إلى المدينة. وعملية الغوص على اللؤلؤ ذاتها مغامرة ومقامرة فيها النجاح وفيها الفشل، وكذلك الأمر بالنسبة لتجارة اللؤلؤ. وعندما أخذت هذه الحرفة تتدهور، وركبت الديون البحارة، وعجز أصحاب السفن عن تسييرها ولم تعد المهنة من المهن المربحة التي توازي ما فيها وما يكتنفها من متاعب وأخطار، لم يكن نصيب الطواشين أحسن من سواهم من العاملين في هذا الميدان.

إلى جانب هذا الانعكاس الاقتصادي لمهنة الغوص على المجتمع نجد انعكاسات كثيرة أخرى، تتمثل في العلاقات الفردية بين الناس كالثقة المتبادلة، والاعتماد على كلمة الشرف في المعاملات، وتتمثل في تكوين الأسرة ومكانة ربها فيها، تلك المكانة التي تشبه مكانة النوخذا من بحارة سفينته، وتتمثل في التعاون البالغ بين أبناء المجتمع، ذلك التعاون الذي يبدو واضحاً في تعاون بحارة السفينة الواحدة على تسييرها ورعايتها والذي بدونه يحيق بالجمع العطب. فكأنما كانت الحياة في الكويت إذ ذاك صورة مكبرة من الحياة على ظهر السفينة. ويتمثل في

الأدب الشعبي والغناء والرقص، وكلها أو جلها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة البحرية سواء في سفينة الغوص أو سفينة السفر.

وعند ظهور البترول بالكويت عام ١٩٤٦ كانت حرفة الغوص باعتبارها عاملًا اقتصادياً له أثره الخطير، قد انتهت مخلفة ما خلفت من آثار، وكنت ترى في هذا التاريخ وبعده بقليل على سيف الكويت العشرات بل المئات من سفن الغواصين تلوحها الشمس المحرقة وتنتظر مصيرها المحتوم. ولم يعد النازحون إلى الكويت للعمل بالغوص أول الموسم يأبهون بالمجيء في ذلك الوقت المحدد، ولكنهم وجدوا كما وجد البحارة الكويتيون، بدلًا من دراري البحر ذهباً أسود تتفجر عنه الصحراء، فاستعاضوا به عن تلك المهنة الشاقة العسيرة غير مأمونة النتائج.

وقد تتساءل عما إذا كان من الممكن أن يعاد النظر في عملية استخراج اللؤلؤ على أساس علمي اقتصادي يكفل الربح للعاملين فيه ويمكنهم من استغلال هذه الثروة استغلالًا اقتصادياً سليماً؟..

لقد كانت الوسائل المتبعة في استخراج اللؤلؤ وسائل قديمة تقليدية، هي نفس الوسائل التي كانت متبعة في استخراجه منذ مئات السنين. وعندما اكتشفت الوسائل الحديثة في النزول إلى قعر البحر، لم يفكر أحد في استعمالها لأسباب واضحة في نظر المسؤولين في الخليج، ذلك أن استعمال هذه الوسائل سيتيح الفرصة لعدد قليل من الغواصين لاستخراج كميات كبيرة من اللؤلؤ، وسيحرم غير الممولين من أصحاب السفن الصغيرة من المقدرة على المنافسة، وسيتسبب في نزول أسعار اللؤلؤ في العالم، وربما تسبب في استئصال المحار الذي يتكاثر في مناطق معينة بحيث لا يكون له وجود في المستقبل. وقد لوحظ في السنوات الأخيرة وبعد أن قل عدد الغواصين بصورة كبيرة أن كمية المحار قد زادت وأن محصول السفينة من اللؤلؤ قد ارتفع عن معدل المحصول

أيام ازدهار الغوص، ولكن زيادة الكمية هذه لا تتناسب أسعارها مع ارتفاع تكاليف المعيشة ولا تغري مزيداً من الناس في الرجوع إلى المهنة.

بقي أن يحاول أبناء الخليج أن يقوموا بما سبقتهم إليه اليابان من استنبات اللؤلؤ بالطرق العلمية الحديثة، وبذلك يستطيعون منافسة اليابان في مهنة كان زمامها في أيديهم مئات السنين.

كما أن باستطاعتهم أن يلتفتوا إلى ما يطويه البحر في جوفه من خيرات أخرى، من الأصداف والأحياء المائية ـ فإنه قد أصبح من المعروف أن جون الكويت يمثل مزرعة ضخمة للأسماك، وقد أحصى أحد الهواة أكثر من مائتي نوع من الأسماك تعيش فيه أو تهاجر إليه. ولقد كانت معيشة الكويتيين أول سكناهم هذه الأرض تقتصر على ما يجتلبونه من التمر من البصرة المجاورة لهم وعلى ما يصطادونه من الأسماك من خليجهم. بل إن هناك قرى بالكويت نشأت قبل وجود مدينة الكويت ذاتها وكان أهم ما يمتهنه سكانها هو صيد الأسماك وقد ابتكر أبناء الخليج وسائل عديدة للصيد واستعملوا جميع أنواع الشباك لهذا الغرض. وفي الكويت تبنى سفن الصيد الصغيرة إلى جانب المراكب البحرية الكبيرة. ويكوِّن الصيادون إحدى الفئات الكادحة التي تعتصر قوتها بصبر وعنف بين أمواج البحر. وقد أخذوا أخيراً يطورون وسائلهم في الصيد ويستعملون السفن الآلية والسفن المزودة بالثلاجات للصيد في المناطق البعيدة عن المدينة. وبقي أن يقوم المسؤولون بدراسة عملية للجون الذي يبدو أنه مهجر وموطن للتكاثر لكثير من الأسماك التي تجد من سواحله الطينية والصخرية مكاناً صالحاً للتكاثر، وأن تسن القوانين التي تنظم عملية الصيد وأوقاته. وأن يعجل بإنشاء معهد الأحياء المائية الذي سيكون من نتائج إنشائه استغلال ثروة ضخمة ستعود على الاقتصاد القومي بأطيب النتائج.

لمزيد من البحث

(1) Sons of Sinbed, by Alan Vellles.

(2) The Arabs of the Desert, by H. R. P. Dickson.

(٣) عمال الكويت من اللؤلؤ إلى البترول للأستاذ أمين عز الدين.

(٤) الملاحة العربية في القرون الوسطى، محاضرة للأستاذ حسين فوزي في الجزء الثاني من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت.

(٥) ثقافتنا البحرية وشهاب الدين أحمد بن ماجد، محاضرة للأستاذ محمد رضا الشبيبي في الجزء الخامس من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت.

(٦) ليث البحر أحمد بن ماجد، محاضرة للأستاذ عبدالهادي هاشم في الجزء الخامس من محاضرات الموسم الثقافي بالكويت.

(٧) تاريخ علم الفلك في العراق للأستاذ عباس العزاوي.

(٨) تقرير معارف الكويت السنوي لعام ٥٩/ ١٩٦٠.

الفصل الخامس

البيئة البدوية

كان المجتمع العربي في الكويت إلى عهد قريب مجتمعاً يسوده نظام القبيلة، لا تعقيد فيه ولا نظم إلا ما تدعو إليه حياة المجتمع المبسطة في ذلك الحين. وكان عدد السكان يخضع في زيادته ونقصه إلى ما ترسله البادية إلى الكويت من رجال يعملون في البحر في موسم الغوص، أو يبيعون منتجاتهم ويشترون حاجاتهم من غذاء وكساء. وكانت الكويت مركز تموين لقبائل نجد يردونها كل عام في موسم يسمى موسم المسابلة، تعمر فيه أسواقها بما يجلبه تجار الكويت من حاجات البدو وبما يبيعه البدو من منتجات أغنامهم. وعندما أسس المغفور له الملك عبدالعزيز بن سعود دولته واستولى على الإحساء وأمر قبائله بالإنصراف عن الكويت إلى موانئ الدولة الناشئة حدثت في الكويت أزمة اقتصادية عنيفة عانى التجار من جرائها الكثير.

وكان المتعارف عليه أن هذه القبائل أو تلك تكون تابعة لآل السعود أو آل الصباح تغزو معهم إذا غزوا، وتأتمر بأمرهم، وتدفع لهم الزكاة. والولاء في الصحراء لمن هو أقوى جانباً وأقدر على النفع أو الضرر. على أن هناك قبائل لا تبعد بمضاربها عن مدينة الكويت كثيراً، كان ولاؤها للكويت دائماً أو شبه دائم، وتسمى هذه القبائل بالعريبدار، وهي لا تتوغل كثيراً في نجد وترتبط بالحضر في الكويت بصلة وثيقة.

وكانت زكاة البدو مصدر رزق هام لحكام الكويت والدلالة الأولى على ولاء القبيلة، وربما أرسل الحكام أحدهم للصحراء ليكون مسؤولا عن

البدو فيها كما تم عندما أرسل الشيخ مبارك أميراً على البدو قبل أن يعتلي كرسي الإمارة. إذن فقد كانت صلة الكويت بالبادية لا تقل عن صلتها بالبحر، وقد يلتقي البحار والبدوي في شخص واحد يذهب مع السفينة للغوص على اللؤلؤ صيفاً ثم يستأنف حياة البدو في الصحراء بقية العام.

وتتمثل صلة الكويت بالصحراء في عادة ورثها الكويتيون عن أجدادهم ولايزالون يمارسونها حتى اليوم، ذلك أنهم إذا أقبل الربيع نزح بعضهم إلى الصحراء وضرب خيامه وأقام أياما يستروح نسيم البادية بهدوء بال وطمأنينة. والمدارس تغلق أبوابها أسبوعين في الربيع لهذا الغرض وتسمى هذه الفترة عطلة الربيع. لقد كان الربيع مصدر خير كبير للكويتيين إذا سبقه شتاء جاد مطره. إذ تعشب الصحراء وتكثر المياه وتحلو الآبار وتسمن الماشية والأغنام وترخص الأسعار بما يجتلبه البدو إلى المدينة من نتاج الصحراء، فيعم الرخاء البدو والحضر معاً. وأرض الكويت إذا أمطرت كانت مراعي خصبة صالحة للرعي مما شجع الكثيرين على الإهتمام بتربية الماشية والأغنام والإبل. وقامت في الكويت في مطلع هذا القرن مهنة درت الربح الوافر على الكثيرين منهم، تلك هي تربية الخيل العربية ثم تصديرها، ونبغ أناس اشتهروا بمعرفة الخيل الأصيلة وأنسابها وطرق تربيتها وإعدادها للحرب أو للسباق.

وكانت الصحراء مجالاً دائماً للغزوات والحروب، والقبائل فيها بين طامع ومطموع فيه، ونزعة السيطرة تراود كل قوي قادر. والكويت تقف على حافة هذه الصحراء ترقب الأمور بعين يقظة، إذ كثيراً ما تعرضت المدينة أو بدوها للغزوات مما دفع الكويتيين جميعاً إلى تعلم الفروسية واستعمال السلاح. ولم يكن هنالك من جيش إذ أن كل قادر على حمل السلاح جندي يدافع عند الحاجة عن نفسه وعرضه وبلده، وعندما تأزمت الأمور في العقد الثاني من هذا القرن اضطر الكويتيون أن

يبنوا حول مدينتهم سوراً عمل فيه كل فرد قادر منهم واشتغلوا فيه ليلاً ونهاراً حتى أتموه في شهرين من الزمان.

وكانت تأثيرات البادية ملحوظة إلى ما قبل سنوات في الأسرة الكويتية وتقاليدها التي تنظمت حسب أصول التنظيم القبلي الشائع في البادية، فالقبيلة، كما نعرف، تعهد بقيادتها إلى أحد سراتها حسب شروط معينة، كأن يكون أكبرهم سناً وأكثرهم شجاعة وإقداماً أو أبعدهم حكمة ورأياً. . الخ. فقامت الأسرة على ضوء هذا التنظيم. فكان رب الأسرة الحاكم المطلق صاحب الرأي النافذ والقول الفصل، حتى في أخص شؤون الأسرة، بل قد تتجاوز سلطة كبير الأسرة إلى الأسر الأخرى التي ترتبط معها بنسب وصلة وقرابة.

ونجد أثر التقاليد القبلية في التزاوج، فالقبائل تختلف مرتبة في الأصالة والشرف الموروث، ولا يمكن أن تزوج قبيلة ترى نفسها من مرتبة عالية إحدى بناتها لرجل من قبيلة أخرى تراها أو يراها العرف السائد دونها مرتبة ولكنها ترضى أن يتزوج أحد رجالها بامرأة من قبيلة أخرى دونها، وإن كان أبناء هذه الزوجة لن يكونوا في شرف القبيلة الخلصاء، والحال كذلك بالنسبة للأبناء الذين يأتون من الرقيقات أو المولدات. وينتج عن ذلك حلقات متتابعة في الأصالة من حيث الأب ومن حيث الأم عند بحث مدى صلاحية وكفاءة الزوج أو الزوجة الراغبين في الزواج. ولا يزال المجتمع العربي في الكويت يعطي لهذه التقاليد القبلية أهميتها الخاصة، ولا يزال الزواج في نطاق الأسرة الواحدة السائد الأعم، وإن كانت البوادر تدل على أن هذه القيود البالية ستبدأ في التحطم مع تعميم التعليم وانتشار الوعي الاجتماعي السليم، وشمول ولاء الفرد للمجتمع بأسره بدلا من قصره على نطاق الأسرة الضيق المحدود.

وفي العلاقات الاجتماعية الفردية نجد أن البدوي يقدر لعامل السن أهمية كبيرة، فالكبير سناً يحتل من المجالس الصدارة، وهو مبجل مكرم، قد عرك الأيام ومر بالتجارب وأصبح ذا خبرة في الحياة، فرأيه أقرب إلى الصواب وما سلخه من العمر الطويل في القبيلة يجعله أدعى إلى التقدير والإحترام. وقد انعكست هذه النظرة على مجتمعنا في الكويت فأصبحت واضحة في العلاقات الإجتماعية بين الناس وبالأخص في نطاق الأسرة الواحدة. وأخذ الكويتيون من عادات البادية - فيما أخذوا - التأريخ بالأحداث والوقائع فهناك سنة الجهرة، وسنة الصريف، وسنة الطبعة، وسنة الرحمة[1] . . . الخ.

لقد كانت علاقة الكويت بالبادية وتأثرها بالصحراء وعاداتها وتقاليدها ملحوظة في شتى نواحي حياتها حتى في الغناء والرقص ومراسيم الأفراح، والزجال الكويتي كان - إلى ما قبل سنوات قليلة - حين يقول شعراً زجلياً، يصطنع كلمات بدوية لا تستخدمها اللهجة المحلية ليدلل على طول باعه في الشعر وعلى أنه يمتّ إلى الصحراء بصلة، أي صلة. وكانت العرضة أو «الحدوة»، هي رقصة الحرب، يقيمونها عند الاستعداد للغزوات كما يقيمونها في الأفراح والأعياد والمناسبات الوطنية، وكان يشترك فيها الجميع بسيوفهم وبنادقهم، وتتردد فيها الأغاني البدوية على النسق البدوي، مثل:

---

(١) سنة الجهرة نسبة الى موقعة الجهرة في أكتوبر ١٩٢٠، وسنة الصريف نسبة الى موقعة الصريف بين جيش مبارك الصباح وجيش عبد العزيز بن رشيد في ١٧ مارس ١٩٠١ وانهزم فيها جيش مبارك، وسنة الطبعة نسبة إلى غرق مجموعة من السفن في ١٨٧٢، أما سنة الرحمة فهي نسبة إلى انتشار وباء في ١٩١٨ . (الناشر).

لابتي[1] حنا[2] شبوب الحرايب[3] وان خبت احنا سنا نارها

ومثل:

رصاصنا لأكل اللحم ضاري قلاع[4] ما تبرى مصايبه[5]

والسلم ما له عندنا طاري[6] والحرب نسرح به ونغدى به

وظلت الكويت تتفاعل مع البادية، تتأثر بها وتؤثر فيها، كما أخذ عدد السكان في الحضر ينمو بما تغذيه به البادية من أبنائها الذين يميلون إلى المدينة ويجتذبهم إليها الرزق الوافر والحياة الهادئة، حتى خرج النفط في صحراء الكويت وعُبدّت طرق المواصلات ودوى هدير الآلة في الصحراء الهادئة، فاختفت كثير من مضارب الخيام وبيوت الشعر أو كادت. وتحول البداة إلى مواطنين مستقرين وأخذوا يمارسون الأعمال المدنية، ومنهم من نزح إلى قرى الكويت وضواحيها فاستقر ومنهم من مد خطواته حتى سكن قلب مدينة الكويت.

لقد جاءت مدنية القرن العشرين سريعة قوية عارمة لتحل دياراً عاشت على نمط واحد ألوفاً من السنين، فحل المذياع محل السمر في ليالي القمر، وحلت السيارة مكان الحصان والجمل، وتبدلت الأرض غير الأرض، ولم تبق من البادية القديمة إلا طلول، وغدت البادية

---

(١) جماعتي
(٢) نحن
(٣) الحروب
(٤) يقلع اللحم
(٥) اصابته
(٦) ذِكر

ولياليها وأيامها ذكرى طيبة لعهد ذهب لا عودة له، وليس في الكويت من يردد اليوم قول شاعرنا القديم:

ومن تكن الحضارة أعجبته　　فأي رجال بادية ترانا

وبدو الصحراء لا يعرفون حدوداً ولا قيوداً، ولا يعترفون بجوازات السفر أو الأوراق الرسمية. ولذلك فإنهم ينتقلون، حين يحلو لهم أن ينتقلوا، طلباً للماء والكلأ حيث يكون. وما زلنا نرى داخل حدود الكويت بدواً رحلاً بخيامهم وماشيتهم جاءوا من بادية الشام أو بادية العراق أو بادية نجد، يمكثون داخل الحدود ما طاب لهم المكث ثم يعودون ديارهم بعد ذلك.

وطالما بحثت في المؤتمرات العربية وفي اللجان الحكومية مشكلة توطين البدو والعشائر، تلك المشكلة التي تعاني منها بعض الأقطار العربية الشقيقة الكثير، مدركة الخسائر العظيمة التي تتكبدها من جراء هذه القوة البشرية المبددة. إن هذه المشكلة لم يعد لها وجود في الكويت اليوم. فبدو الكويت قد توطنوا جميعاً، وإن بقي منهم القليل في طريقه إلى التوطين والإستقرار.

الفصل السادس

البيئة الصناعية
قصة النفط بالكويت

منذ مائة عام ـ في عام ١٨٥٩ على التحديد ـ تمت أول عملية لحفر آبار البترول في أمريكا. ولم يكن النفط مجهولاً قبل هذا التاريخ، ولكن الإنسان لم يحفر عنه كي يجده بكمية كبيرة بل كان يكتفي بما قد يتسرب منه إلى سطح الأرض في كميات ضئيلة. وعندما بدئ في الحفر عنه ووجد بكميات غزيرة، كان ذلك إيذاناً ببدء مرحلة جديدة في تاريخ المدنية. واتسعت عمليات الحفر عنه في أمريكا وفي سرعة شديدة، حتى غدا البترول مادة حيوية وعاملاً اقتصادياً هاماً في تلك البلاد.

واليوم ـ وبعد مرور قرن من الزمان على قيام صناعة البترول الحديثة، يقارب إنتاج العالم من النفط حوالي ألف مليون طن في العام. ففي عام ١٩٥٩ بلغ مجموع إنتاج العالم من النفط نحو ٩٧٧ مليون طن بزيادة قدرها سبعون مليون طن عن إنتاج العام السابق، ولا شك أن الانتاج في عامنا الحالي (١٩٦٠) سيتجاوز هذا الرقم بكثير، نظراً للاكتشافات الجديدة لحقول البترول في العالمين الشرق والغربي. ومن هذه الكمية أنتج الشرق الأوسط عام ١٩٥٩ مائتين وواحداً وثلاثين مليون طن، وهو رقم قياسي بالنسبة للانتاج في السنة الماضية حيث زاد استخراج البترول بكميات متصاعدة، ومن المتوقع أن يزيد الإنتاج في السنين القادمة ولكنه ليس من المتوقع أن تكون الزيادة بالنسبة التي تمت بها في السنوات العشر الماضيات. وذلك للأسباب التالية:

١ - عدم ازدياد الطلب من أوروبا بسبب اكتشاف حقول النفط في

شمالي أفريقيا، تلك الحقول التي تمتاز بميزة جغرافية هامة هي قربها إلى أوروبا التي تعتبر أكبر منطقة مستوردة للنفط في العالم.

٢ - زيادة انتاج البترول في روسيا، وإرسالها كميات متزايدة منه إلى أوروبا حيث ينافس نفط الشرق الأوسط.

٣ - القيود الاستيرادية في الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط.

ويمثل الخليج العربي أحد المناطق الأربع الرئيسية في العالم لإنتاج البترول وهي الولايات المتحدة، والمنطقة الكاريبية، والاتحاد السوفييتي، ومنطقة الخليج العربي والعراق. وربما أصبحت الصحراء الكبرى وليبيا الخامسة في السنوات القليلة المقبلة. ويبدو أن الخليج العربي يقوم على بحيرة من البترول في معظم أجزائه إن لم يكن كلها، وأول ما اكتشف البترول فيه كان عام ١٩٠٣ في إقليمي خوزستان وعربستان بإيران. ويبدو أن انجلترا كانت تتوقع اكتشاف البترول في إمارات الخليج مما حداها إلى أخذ التعهدات على الأمراء بأن يكون لها وحدها حق في التنقيب عن النفط في تلك البلاد، وكانت أول محاولة للبحث عن البترول في الساحل العربي هي اتفاق الميجر هولمز مع المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود عام ١٩٢٣. على أن ذلك الاتفاق لم ينفذ فألغي فيما بعد، وأعطي الإمتياز لشركة أرامكو الأمريكية عام ١٩٣٥.

واليوم يستنبط البترول أو ينقب عنه في جميع سواحل الخليج العربي. في إيران، وجنوبي العراق، والكويت، والإحساء، وقطر، والبحرين وساحل عُمان ومسقط. وترتيب مناطق الانتاج في الخليج تنازلياً من حيث الكمية المستخرجة من البترول كما يلي[١]:

---

(١) تغير هذا الترتيب، والدولة الأولى في الإنتاج هي المملكة العربية السعودية. (الناشر).

١ ـ الكويت.
٢ ـ المملكة العربية السعودية.
٣ ـ إيران.
٤ ـ العراق (بما في ذلك مناطق الشمال).
٥ ـ قطر.
٦ ـ البحرين.

وتقوم الكويت فوق أعظم خزان للبترول في العالم، إذ يقدر المدخر في الأرض إلى الآن حوالي ٢٥٪ من مجموع مدخرات العالم غير الاشتراكي، وهو أكثر من ضعفي مدخرات الولايات المتحدة وأربعة أضعاف مدخر فنزويلا. وتستغل امتياز استخراج النفط من الكويت شركات ثلاث هي[١].

١ - شركة نفط الكويت المحدودة (K.O.C.) ويملكها مناصفة شركة النفط البريطانية وشركة نفط الخليج (جلف) الأمريكية.
٢ - شركة النفط الأمريكية المستقلة (أمينويل) (Aminoil) وتملكها عشر شركات أمريكية.
٣ - شركة النفط العربية (Arabian Oil Co.) وتسهم في امتلاكها أكثر من أربعين من الشركات والمؤسسات المالية اليابانية.

وكان أول ذِكر للنفط في الكويت ورد في الكتاب المرسل من سمو شيخ الكويت مبارك الصباح في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٣ إلى سير برسي كوكس المقيم السياسي بالخليج، يذكر فيه استعداده لتسهيل اطلاع

(١) تم في العام ١٩٧٥ امتلاك شركات النفط الأجنبية في الكويت، وأصبحت تعمل ضمن مؤسسة البترول الكويتية. (الناشر).

من سيرسله على المكان الذي به القار في البرقان، ويعده بألا يعطي امتياز استخراج الزيت لأحد إلا من توافق عليه الحكومة البريطانية.

ومنطقة البرقان التي أشار إليها الشيخ مبارك هي التي اكتشف فيها بعد ذلك أعظم خزان مفرد للنفط في العالم. وبالكويت مناطق وأسماء تدل على أن الكويتيين قد لاحظوا وجود الزيت في باطن الأرض من ظواهره على قشرتها. فكلمة البرقان أما أن تكون محرفة من البركان أو أنها، لوجود القار في أجزاء منها على سطح الأرض، كانت تلمع تحت حرارة شمس الصحراء كالبرق. وبالكويت كذلك جزيرة قاروه التي تطفو حولها قطع صغيرة من القار منذ قديم الزمن.

وكان أول من بدأ بالاهتمام في البحث عن البترول في أراضي الكويت هو الميجر فرنك هولمز وهو ضابط نيوزيلندي اهتم بشؤون البترول بصفة عامة وببترول الخليج بصفة خاصة، وقد حاول الحصول على امتياز لشركة (جلف) الأمريكية ولكنه لم يوفق. ثم التفتت شركة البترول الإنجليزية الإيرانية إلى احتمال وجود البترول بالكويت عام ١٩٣٠ بعد أن تأكد وجوده في البحرين فدخلت في محاولات للحصول على امتياز تنازعها في الحصول عليه شركة (جلف) الأمريكية. واستمرت المحاولات سنوات ثلاث رأت الشركتان في نهايتها أن خير طريق للوصول إلى غايتهما هو أن تتفقا فيما بينهما وتتقدما معاً للحصول على الامتياز. وهكذا تشكلت شركة نفط الكويت في ديسمبر ١٩٣٣ . من شركة النفط الإنجليزية الإيرانية (شركة النفط البريطانية الآن) وشركة نفط الخليج الأمريكية (شركة جلف) شريكتين متساويتي الحقوق في الشركة الجديدة فيما يتعلق بالتنقيب عن النفط بالكويت، برأسمال قدره مائتا ألف جنيه استرليني، وفي ٢٢ من ديسمبر ١٩٣٤ حصلت الشركة من المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح حاكم الكويت إذ ذاك على

امتياز الاستكشاف والبحث والإنتاج والاستغلال للنفط ومستخرجاته ضمن منطقة إمارة الكويت بما في ذلك الجزر والمياه التابعة للكويت (على امتداد ستة أميال من حدود الجَزْر) والحق بامتلاك كل ما تستخرجه وتنتجه من النفط وتصفيته أو بيعه ضمن إمارة الكويت أو تصديره وبيعه في الخارج.

وقد تمت الاتفاقية في سرية تامة بين حاكم الكويت من جهة ومندوبي الشركة من جهة أخرى، ورغم مرور ستة وعشرين عاماً منذ عقدها، فإن هذه الاتفاقية لم تنشر على الناس[1] ولم يطلع على جميع بنودها إلا القلة من الرجال أصحاب العلاقة المباشرة. وقد كان هذا هو الشأن في اتفاقيات البترول عند أول اكتشافه في الخليج العربي، وكان السبب الذي يحدو الشركات إلى جعل هذه الاتفاقيات ذات طابع سري بينها وبين الحكومات سبباً واضحا: ذلك هو الاستغلال المريع، والإجحاف الواضح بحقوق البلد المنتج للبترول الذي يتضح في ثنايا الاتفاقيات. ولكننا لا ندري الأسباب التي تجعل الحكومات مسايرة للشركات في هذا السبيل إلا أن يكون ضغطاً من الشركات ومن وراء الشركات من قوى خفية وظاهرة؛ على أن هذا الاتجاه لإخفاء الاتفاقيات قد زال أو أوشك على الزوال بعد أن تسربت الاتفاقيات إلى الصحف عامة، وإلى الصحف المتخصصة في شؤون البترول بصفة خاصة، وبعد أن أدركت الحكومات مدى الغبن الذي وقعت فيه من جراء هذه السرية التي لا مبرر لها، حتى لقد غدا نشر الاتفاقيات فور إبرامها ضرورة لازمة

(١) نشرت وزارة الاعلام الإتفاقية الأولى لامتياز النفط الكويتي - سجل المفاوضات «١٩١١ - ١٩٣٤» باللغة العربية ارتشيبالد هـ. ت تشيزهولم وهو د.ت، ولكن مقدمته بقلم المؤلف حررت في ١٩٧٤ . (الناشر).

لسريان الاتفاقية ذاتها، إذ تنص بعض الاتفاقيات الجديدة أن البلد المنتج يحق له أن يطالب برفع مستوى فوائده إلى مستوى الفوائد التي يكون قد نالها بلد آخر، بل أنه قد أصبح من المفهوم ضمناً أن البلد المنتج له الحق بالمطالبة بهذا التعديل حتى ولو لم يكن هنالك نص صريح في الاتفاقية على ذلك.

ولكي ندرك مدى الإجحاف الذي أصاب الكويت من وراء اتفاقية ١٩٣٤ بينها وبين شركة نفط الكويت المحدودة، نورد أهم بنود الاتفاقية وهو ما يتعلق بالفوائد المادية التي تعود على الكويت أثناء التنقيب وبعد استخراج النفط.

١ - تدفع الشركة مقابل حق التنقيب عند توقيع الإتفاقية مبلغ ٤٧٥,٠٠٠ روبية أي حوال ٣٦ ألف جنيه.

٢ - تدفع الشركة مبلغ ٩٥,٠٠٠ روبية سنوياً إلى حين اكتشاف النفط بكميات تجارية (حوالي سبعة آلاف جنيه).

٣ - عند اكتشاف الزيت بكميات تجارية تدفع الشركة رسماً على الطن الواحد مقداره أربع شلنات ونصف (أي ثلاث روبيات او ٢٢,٥ قرشاً) بحيث لا يقل مجموع المدفوع سنوياً عن ربع مليون روبية. مضافا إلى ذلك رسم إعفاء من الضريبة والرسوم على اختلاف أنواعها على جميع ما تورده الشركة بمقدار ربع روبية (أقل من قرشين) على الطن الواحد.

إلى جانب ما تدل عليه هذه الشروط من إجحاف واضح بحق الكويت، فإن مدة الاتفاقية جعلت خمسة وسبعين عاماً وهي أطول مدد الامتياز المعروفة. واقتصرت عمليات الشركة على انتاج البترول الخام فقط، وهي تقوم بتسليمه إلى الشركتين اللتين تمتلكانها ولا تقوم بتكرير شيء منه في الكويت إلا كمية يسيرة للاستهلاك المحلي. وتقوم الشركتان

المالكتان لشركة نفط الكويت بتكرير البترول الكويتي في معاملهما بأوروبا وآسيا وأمريكا، وتجنيان أرباح التكرير لحسابهما الخاص ودون أن تنال الكويت من وراء ذلك شيئا، فهي لا تستفيد من التكرير بصفة عامة، كما أنها لا تستفيد من عمليات التكرير الضئيلة التي تتم بالكويت والتي كان بالإمكان توسيع نطاقها بحيث يصدر أغلب البترول الكويتي مكرراً بدلاً من أن يصدر خاما. وربما كان من أهم العوامل التي ساعدت على حصول شركة نفط الكويت على هذا الامتياز العجيب هي:

١ - اتحاد الشركتين المتنافستين وتكوينهما جبهة واحدة في تفاوضهما مع سمو أمير الكويت للحصول على الامتياز بأبخس الأثمان.

٢ - تدخل الحكومة البريطانية لإعطاء الامتياز لشركة مقرها بريطانيا. والحكومة البريطانية كانت حريصة على أن لا يكون لمزاحمة أمريكا شأن كبير بالنسبة لاقتصادياتها في الخليج، ويلاحظ كذلك أن الحكومة البريطانية تملك بواسطة وزارة الحربية البريطانية أكثر من نصف أسهم شركة البترول البريطانية التي تملك بدورها نصف شركة نفط الكويت.

٣ - الأوضاع الإقتصادية التي كانت تعانيها الكويت في تلك الفترة بالذات على أثر انهيار تجارة واستخراج اللؤلؤ، مما جعل المسؤولين يرحبون بأي مورد يساعد على انتشال الأوضاع الاقتصادية من الهوة التي تكاد تتردى فيها.

٤ - ضعف الوعي الإقتصادي وعدم وجود مختصين ومستشارين يمكن الركون إليهم في هذا السبيل.

بدأت الشركة عملها عام ١٩٣٥ وحفرت البئر التجريبية الأولى عام ١٩٣٧/٣٦ في منطقة بحرة شمالي جون الكويت، ورغم أنه لم توجد في

هذه المنطقة كميات من البترول تجارية، إلا أن عمليات البحث والتنقيب كانت مشجعة. وفي عام ١٩٣٨ اكتشف حقل البرقان الكبير الذي يقع على مسافة ٢٨ ميلا جنوبي الكويت وعلى مسافة أربعة عشر ميلا من ساحل البحر. ورغم قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ إلا أن أعمال التنقيب عن النفط وعن حقوله كانت مستمرة لأن نصف الشركة مملوك لشركة أمريكية ولم تكن أمريكا قد دخلت الحرب بعد. وكانت تسهل ارسال المعدات والأدوات والفنيين إلى مناطق التنقيب بالخليج. إلا أن بريطانيا رأت في يوليو سنة ١٩٤٢ ايقاف عمليات الحفر والتنقيب ايقافاً تاماً لأسباب تتعلق بالحرب. فتوقفت جميع الأعمال وسدت الآبار التي تم حفرها بالأسمنت على سبيل الاحتياط. وبعد انتهاء الحرب استؤنف العمل في أكتوبر ١٩٤٥، وكان العالم في ظمأ شديد إلى البترول، فسارت عمليات الحفر في همة شديدة، وفي يونيو سنة ١٩٤٦ صدرت أول شحنة تجارية من نفط الكويت في باخرة أقلتها إلى انجلترا. وكان مجموع ما صدر في هذا العام (ابتداء من ٣٠ يونيو منه) ٧٩٧٣٥٠ طنا. وكان مجموع ما حفر من الآبار إذ ذاك ستة وأربعين بئرا.

وقبل أن نشير إلى تطور عمليات التنقيب والتصدير وإلى التعديل الذي طرأ على اتفاقية عام ١٩٣٤ يجدر بنا أن نشير إلى الظروف المادية التي تصاحب عمليات انتاج النفط بالكويت.. لقد أشرنا في مطلع حديثنا إلى أن المدخر أو المخزون من النفط الخام في أراضي الكويت يقدر بحوالي ٢٥٪ من مجموع مدخرات العالم غير الاشتراكي (أكثر من ستين ألف مليون برميل قابلة للزيادة بما يكشف الآن من حقول جديدة). هذه الكميات الخيالية من النفط الذي تحتويه أرض الكويت يتم استخراجها بتكاليف ضئيلة تعتبر أقل التكاليف بالنسبة لأي حقل بترول في العالم، وذلك للأسباب التالية:

١ - وجود البترول على أعماق غير بعيدة (تتراوح بين ٣٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ قدم) في معظم الآبار، وقرب البترول من السطح يخفف من التكاليف الإنتاجية ويسهل عملية الاستنباط إلى درجة كبيرة.

٢ - غزارة البترول في الآبار، إذ تعتبر آبار نفط الكويت أكثر الآبار إنتاجاً. ينتج متوسطها خمسة آلاف برميل يومياً، ويصل بعضها إلى عشرة آلاف.

٣ - ضآلة عدد الآبار الجافة بالنسبة للآبار المنتجة.

٤ - خروج النفط بقوى الضغط الذاتي لما تحتويه طبقات الأرض من غاز يساعد على خروج البترول دون مضخات.

٥ - قرب حقول البترول من موانئ التصدير. إذ كل الحقول التي بلغ عددها الآن سبعة «هي: بحرة ـ البرقان ـ المقوع ـ الأحمدي ـ الروضتين ـ الصابرية ـ المناقيش» تقع على مسافة قريبة من البحر تجعل مد الأنابيب إلى الميناء أمراً ميسوراً. أضف إلى ذلك أن مراكز التجميع للبترول الخام تقع على مرتفع من الأرض تجعل البترول ينساب بحكم الجاذبية إلى الميناء ثم إلى شاحنات البترول.

٦ - سهولة التنقيب والإنتقال على أرض منبسطة سهلة.

٧ - أكثر آبار النفط مزدوجة الإنتاج يتسرب النفط خلال جدرانها من طبقتين منفصلتين من الطبقات الرملية المنتجة للنفط.

هذه التسهيلات الطبيعية جعلت تكاليف الإنتاج لنفط الكويت الخام أقل من أي مكان آخر، حتى أن بترول الكويت يصل إلى أمريكا بسعر أقل من بترول أمريكا نفسه. ورغم ذلك فإن ما كانت تجنيه الكويت من عوائد من التفاهة بحيث تعتبر أقل عوائد لبلد منتج للبترول في أي مكان كان. وقد استمر العمل باتفاقية سنة ١٩٣٤ إلى آخر عام ١٩٥١، عندما طلبت حكومة الكويت تعديل الإتفاقية طبقاً للمبدأ الجديد الذي

بدئ بالأخذ به في المنطقة، وهو مبدأ مناصفة الأرباح. وهذا المبدأ طبق في فنزويلا منذ عام ١٩٣٤، وفي المملكة العربية السعودية عام ١٩٥٠، وكان لابد من الانصياع للمبدأ الجديد لسببين رئيسيين:

١ - ما ثبت من وفرة انتاج الكويت في السنوات الست الماضيات حيث ارتفع الإنتاج في عام ١٩٥١ إلى ٢٧,٧٨٣,١٧٠ طناً بزيادة أكثر من عشرة ملايين طن عن العام السابق له. وما ثبت من سهولة الإنتاج ويسر التصدير إلى جانب الغزارة الواضحة في الآبار.

٢ - قيام أزمة مصدق[١] الحادة وتوقف تصدير البترول من إيران، وكذلك توقف معامل التكرير في عبادان. مما أشعر الغرب بحاجته الماسة إلى النفط بكل السبل. فكيف به من مورد لا يكاد ينضب. أضف إلى ذلك الوعي البترولي الجديد في المنطقة بسبب حوادث إيران وبسبب تعديلات الإتفاقيات في البلاد الأخرى وشركات البترول تعرف قبل غيرها أنها لا تستطيع أن تحقق أهدافها الإقتصادية إلا إذا عاشت في وئام وسلام وتفاهم مع البلاد التي تستغل نفطها. وإنتاج النفط في الشرق الأوسط مرتبط بالأسواق العالمية، وبالطلب على البترول في الغرب بصفة خاصة، وليس بإمكانيات حقول النفط فحسب، فقد يكون لدى البلد المنتج حقول غنية ولكن الشركة المستغلة لا ترى زيادة الإنتاج منها لسبب يتعلق بالإستهلاك في

(١) محمد مصدق زعيم حزب الجبهة الوطنية، ورئيس وزراء ايران (١٩٥١ - ١٩٥٣)، أمم صناعة النفط التي تملكها شركات غربية في ١٩٥١، اصطدم مع الشاه الذي أقاله في ١٩٥٣، وقدم إلى المحاكمة. (الناشر).

منطقة ما، أو يتعلق بسياسة البلاد التابعة لها الشركة المستغلة في توجيه الإنتاج من البترول إلى تلك المنطقة أو منعها عن تلك. هذا إلى أن شركة نفط الكويت مملوكة لشركتين أخريين تشتريان إنتاجها خاماً أولاً بأول. وهما اللتان تتوليان نقله وتسويقه وتصنيعه لحسابهما الخاص. فهناك تحكم ضمني من الشركات المستغلة في الإنتاج وكميته وحسب الحاجة التي تشعر أنها تحقق مصلحتها أو تحقق سياسة عليا لا بد أن تخضع لها. وفي البلاد المتأخرة فنياً وصناعياً، لا يكفي أن تكون البلد مالكة لكميات من المدخرات البترولية في جوف الأرض لكي تكون قادرة على الإفادة منها حسب حاجتها الشخصية، بل لا بد أن تكون قادرة على استنباطها ونقلها وتسويقها وتصنيعها وإلا فإنها لا بد متحكم فيها ضمنياً بواسطة الشركات العاملة في شؤون البترول المختلفة، والتي تكوّن شبكة عالية ضخمة مترابطة هدفها بطبيعة الحال تحقيق أكبر نفع لمساهميها في مختلف الأسواق.

وقد حقق التعديل الجديد المصالح التالية للكويت:

١ - مناصفة الأرباح بين الشركة والكويت ابتداء من أرباح ديسمبر ١٩٥١(كانت الشركة إلى ذلك الحين قد أنتجت حوالي ستة وستين مليون طن من البترول الخام خضعت للضريبة القديمة).

٢ - الحق في إعادة تعديل الإتفاقية لصالح الكويت في حالة حصول بلاد أخرى في الشرق الأوسط على شروط أفضل.

٣ - حددت الجزر التابعة للإمتياز، واستبعدت جزر كبّر وقاروه وأم المرادم.

٤ - خصصت منحة سنوية للصرف على التعليم العالي للكويتيين في بريطانيا.

وحقق التعديل للشركة المصلحتين التاليتين:

١ - مُدَّ الاتفاق ١٧ سنة أخرى بحيث أصبحت مدة الامتياز إلى عام ٢٠٢٦ فأصبحت بذلك أطول مدة امتياز بترولية من نوعها.

٢ - شمول الامتياز للمناطق المغمورة، بحيث أصبحت ستة أميال بحرية من خط الجَزْر تابعة لامتياز الشركة.

وحيث أن شركة نفط الكويت المحدودة مرتبطة بالشركتين المالكتين لها في تسليمها ما تنتجه من النفط فقد تم الاتفاق على أن تستلم الكويت حصتها من الأرباح بناء على متوسط الأسعار المعلنة للبترول، وكان هناك خصم خاص قدره خمسة بالمائة من الأسعار للشركتين المالكتين، ولكن هذا الخصم ألغي مؤخرا، ولم يبق إلا خصم ١٪ رسم بيع فحسب.

وتقوم الشركة بتكرير كمية محدود من البترول محليا، وقد بدأ مصنع التكرير في العمل عام ١٩٤٩ ثم زيدت طاقته عام ١٩٥٨ وهو ينتج الجازولين والكيروسين وزيوت الوقود للافران وزيوت الديزل. أما المنتجات الأخرى فإنها تصنع خارج الكويت من بترول الكويت ثم يعاد توريدها. وتدفع الكويت قيمة منتوجات البترول للشركة حسب سعرها التجاري بدلا من سعر التكاليف حسبما هو متبع في كثير من البلاد الأخرى. وهكذا تحقق الشركة أرباحا أخرى من منتجات البترول على حساب المستهلك المحلي. كما أن الشركة تقوم بمهمة التوزيع الداخلي للبترول. وقد انشأت الشركة عام ١٩٥٣ معملا للإسفلت بدأ في الإنتاج في يونيو من ذلك العام ويباع إنتاجه على نفس الأساس للحكومة والأفراد.

وتدفع الرسوم للكويت بالعملة الاسترلينية، وحتى في حالة بيع النفط الكويتي خارج بريطانيا بالدولار فإن هذه الدولارات تذهب إلى بريطانيا. علما بأن نصف بترول الكويت تقريباً يذهب إلى بريطانيا فتوفر بذلك الدولارات التي قد تدفعها لشراء البترول من مكان آخر. وهذه الكمية تكاد تكفي نصف حاجة بريطانيا من الوقود، وهو يكرر في معامل التكرير ببريطانيا، إذ يصدر البترول من الكويت خاما كله. وقد حققت شركة نفط الكويت إنتاجا تصاعديا عظيم السرعة في فترة قصيرة من الزمن فبعد أن كان إنتاجها عام ١٩٥٠ (١٧,٠١٨,٦٦٦ طنا ارتفع سنة ١٩٥٢ إلى (٣٧,٠٤٢,١٢٢ طنا) ثم إلى (٥٤,١١٧,٣٤٩ طنا) عام ١٩٥٦. وكان إنتاج العام الماضي (٦٨,٤٥٤,٧٦١ طنا) وبلغ الإنتاج خلال شهر يناير من هذا العام (٦,٦٤١,٧٩١ طنا) فإذا سار على نفس المستوى بقية العام سيكون إنتاج هذه الشركة عام ١٩٦٠ حوالي ثمانين مليون طن من البترول الخام.

وإننا قد نتساءل هنا: هل من مصلحة الكويت هذه السرعة المتزايدة في الإنتاج؟؟ وهل يتم على أساس علمي يضمن للبلاد أعظم فائدة في الحاضر والمستقبل؟؟ وهل من مصلحة الحقول الحالية أن تستنزف نفطا وغازا على هذه الصورة؟؟..

إن شركات البترول تقوم على أساس اقتصادي يهدف إلى تحقيق مصلحتها في بلاد لا تدري مدى مكثها فيها، ولا تستطيع أن تستشف المستقبل لتعرف التطورات السياسية في المنطقة التي تعمل فيها أو حواليها، وفي مادة أصبح الحديث عن مستقبلها موضع البحث والتفكير، سواء في إنتاجها المتزايد في بلاد أخرى أو في حلول القوى الجديدة، ما عرف منها وما لم يعرف بعد، محلها. فلا غرو بعد ذلك أن تحاول شركة نفط الكويت، وهي تستغل أسهل عملية إنتاجية للبترول

بشروط ممتازة وظروف مناسبة وأسواق متوافرة، رفع كمية إنتاجها إلى أعلى مستوى ممكن. وبالأخص أنها لا تخضع لسياسة محلية مرسومة أو لرقابة فنية من جانب أصحاب الأرض دقيقة.

إن هذا الإنتاج العظيم المتزايد يدعو إلى كثير من التفكير، وقد تسبب فعلا في استهلاك الكثير من الغاز الدافع للبترول، ذلك الغاز الذي يحرق أولا بأول لعدم إمكانية تخزينه. مما حدا الشركة إلى إعادة حقنه في الحقول مرة أخرى وهذه العملية تكلف الملايين تتحمل الكويت نصفها.

والغاز الذي يحرق ما مقداره ٦٠٠ مليون قدم مكعب منه يوميا ثروة مبددة تذهب هباء ولا يمكن استردادها بحال من الأحوال. إذ نظرا لطبيعة الغاز السامة فإنه يفصل عن النفط الذي يتسبب في خروجه من الأرض تلقائيا ويحرق ما لا حاجة إليه فورا. وبالكويت يصطبغ الأفق طول الليل والنهار بلهبه المتصاعد من عشرات الأنابيب، ولا يستفاد منه إلا بنسبة لا تزيد عل ٦٪ تستغله شركة النفط بصورة واسعة في جميع مرافقها ومساكن موظفيها، كما تفيد الحكومة من جزء يسير منه بصورة محدودة، في مصانع تقطير المياه وتوليد القوة الكهربائية وبعض المرافق الأخرى التي لا تستهلك إلا نقطة من بحره. علما بأن مدينة الكويت لا تبعد إلا حوالي ٣٠ كيلو مترا من مواقع حرقه.

ولقد تنبه المسؤولون أخيرا إلى هذه الثروة التي تضيع في كل لحظة هباء، فبدأ التفكير في استغلال الغاز بصورة اقتصادية مجدية، ومن المتوقع الإفادة منه بتعبئته وتصديره، وإن كان العامل الأساسي لاستغلال الغاز استغلالا كاملا هو توافر الأسواق الداخلية أو القريبة المستهلكة له، وقيام الصناعات الكيميائية البترولية. فمن هذا الغاز يمكن استخراج العديد من المواد التي تجد رواجا كبيرا في الأسواق العالمية، كالدهان

والعقاقير والمطاط الصناعي والأسمدة والجلسرين والمخدرات الطبية ومواد البلاستيك المختلفة. كذلك تمكن المختصون في فنزويلا من إسالة الغاز على نطاق تجاري واسع، ولو تحقق هذا بالكويت لأمكن إسالة ما يساوي عشرة بالمائة من مجموع إنتاج الزيت ذاته. وأضعف الإيمان أن يعاد حقن الغاز في الآبار لكي يخزن سليما لحين الإفادة منه عند توافر الامكانيات لذلك ولكي يساعد على ظهور البترول وبذلك يمكن الإفادة من الآبار بصورة وافية..

إن كل ما تحدثنا به يتعلق بشركة نفط الكويت (K.O.C) التي تستغل أراضي الإمارة ذاتها وهناك شركة أخرى تعمل في المنطقة المحايدة الواقعة جنوبي الكويت، والتي تمارس فيها الكويت والمملكة العربية السعودية نفس الحقوق حسب اتفاقية أبرمت بينهما عام ١٩٢٢، وهذه المنطقة تمثل سهلا على الخليج العربي تبلغ مساحته حوالي ٥٧٠٠ كيلو متر مربع يشبه في تكوينه الطبيعي أراضي الإمارة الأخرى. وقد منح امتياز التنقيب عن البترول في هذه المنطقة لشركة أمينويل الأمريكية (American Independent oil Co.) في ٢٨/٦/١٩٤٨ ويشمل الامتياز نصف حصة غير مجزأة بالمنطقة ومياه المنطقة الإقليمية ـ على امتداد ستة أميال في البحر ـ ومدة الإمتياز ستون عاما.

وتتكون شركة أمينويل من مجموعة من الشركات المستقلة الأمريكية على رأسها شركة فيلبس، ومقرها الولايات المتحدة، وتدفع الرسوم بالدولارات. وتقوم شركة أمريكية أخرى بالتنقيب في نفس المنطقة لحساب المملكة العربية السعودية هي شركة (جتي) (Getty).

وتقوم الاتفاقية مع شركة أمينويل على دفع سبعة ملايين و ٨٧٥ ألف دولار رسم امتياز، ثم رسوما سنوية بمعدل دولارين ونصف على الطن على ألا يقل المدفوع سنويا عن ٦٥٠ ألف دولار، كما تدفع

الشركة رسوم إعفاء من الضريبة بمعدل ٧,٥ سنتات على الطن. ونص الإتفاق كذلك على أن تمنح الكويت ١٥٪ من أسهم شركة فرعية تؤلف للاستغلال والتنقيب عن الزيت في المنطقة، وعلى أن يكون للكويت ١/٨ الواردات الاجمالية من مبيعات الغاز الطبيعي بعد خصم تكاليف التشغيل والنقل.

وقد كان أول إنتاج لهذه الشركة عام ١٩٥٥ حيث بلغ ما استخرج من النفط ٣١٢,٨٩٥ طنا إنجليزيا، ارتفع سنة ١٩٥٧ إلى ١,٢٧٠,٥٩٦ طنا ثم إلى حوالي ثلاثة ملايين طن في العام الماضي (١٩٥٩). ومن هذا يظهر أن كميات الإنتاج محدودة في هذه المنطقة وهي من حقل واحد هو حقل (وفرة) ويبدو أن الشركة قد واجهت إلى جانب صعوبات الإنتاج صعوبات إدارية تتعلق بنظام العمل لديها. إلا أنها فيما يظهر في سبيل التغلب على كل ذلك. فقد بدأت أمورها بالإستقرار وأنشأت مؤخرا مركزا دائما وميناء للتصدير سمته ميناء عبدالله تيمنا باسم حاكم البلاد الحالي واحتذاء بشركة نفط الكويت التي أسمت مركز عملها مدينة الأحمدي ومركز التصدير ميناء الأحمدي تيمنا باسم الأمير السابق المرحوم أحمد الجابر الصباح الذي اكتشف النفط في عهده.

وأخيرا دخلت اليابان ميدان التنقيب عن البترول في الشرق الأوسط فنالت شركة يابانية امتيازا من المملكة العربية السعودية للتنقيب عن البترول في الأراضي المغمورة بمياه البحر أمام المنطقة المحايدة بين المملكة العربية السعودية والكويت، ثم نالت نفس الشركة، بعد منافسة حادة من شركات البترول الأخرى، امتياز التنقيب والاستغلال للأراضي المغمورة بمياه البحر أمام المنطقة ذاتها من الكويت (بغد المياه الساحلية المقدرة بستة أميال من خط الجَزْر) ووقعت الاتفاقية في ٥ يوليو ١٩٥٨.

تألفت هذه الشركة التي أسمت نفسها شركة النفط العربية (Arabian

Oil Co.) والتي يسهم فيها عدد كبير من الشركات اليابانية عام ١٩٥٧ باليابان برأسمال قدره تسعة ملايين و ٨٠٠ ألف دولار. ويختلف امتياز هذه الشركة عن غيره من امتيازات الشرق الأوسط في أمرين رئيسيين:

١ ـ أن الحكومات تنال أكثر من ٥٠٪ من الأرباح. والمناصفة في الأرباح هي القاعدة التي كانت سائدة في المنطقة.

٢ ـ أن تقسيم الأرباح يشمل عمليات النفط بأجمعها من استخراجه إلى تسويق منتجاته.

وقد نالت الشركة امتياز استخراج البترول من هذه المنطقة لمدة ٤٤ عاما. وتقسم الأرباح بنسبة ٥٧٪ للكويت و ٤٣٪ للشركة (بينما اتفاق الشركة ذاتها مع المملكة العربية السعودية على أساس ٥٦٪ للمملكة العربية السعودية و ٤٤٪ للشركة) وتأخذ الكويت النسبة المخصصة لها من إنتاج وبيع النفط الخام، كما تأخذ نفس النسبة من أي ربح تناله الشركة بسبب التكرير والنقل والتسويق. على أن تتم عمليتا التقسيم منفصلتين، فإذا كانت هناك خسارة من عمليات التكرير والنقل والتسويق فإن الكويت لا تتحمل شيئا منها. وهذا يعني أن حصة الكويت من تقسيم الأرباح لن تقل عن ٥٧٪ ولكنها قد تزيد عن ذلك بالنسبة لما تربحه الشركة. وتنص الاتفاقية على بناء مصفاة في المنطقة المحايدة أو الكويت، وعلى بيع ١٠٪ من الإنتاج للكويت و ١٠٪ للدول العربية الصديقة، وعلى إنشاء مركز للدراسات البترولية، وذلك عندما يرتفع الإنتاج إلى حد معين. وكذلك نصت الاتفاقية على تخصيص ١٠٪ من الأسهم للكويت بقيمتها الإسمية.

وقد بدأت الشركة بالحفر على بعد ٢٨ ميلا داخل البحر من ساحل المنطقة المحايدة، وأصابت أول بئر للبترول في أول فبراير ١٩٦٠ إنتاجها ٦٠٠٠ برميل يوميا. وذلك بعد محاولات عديدة، وبعد

خسائر تكلفتها الشركة من جراء حريق شب في معداتها بالبحر كلفها ٧٨٠ ألف دولار. وقد تفاءل المختصون في الشركة بهذا الكشف وأصبح من المقرر أن يتم حفر ثماني أو تسع آبار أخرى خلال هذا العام (١٩٦٠) تنتج مليونين ونصف مليون طن من النفط.

ويعلق الرسميون والإقتصاديون في اليابان أهمية كبرى على نجاح هذه الشركة في عملياتها، ويتطلعون إلى حفر أكثر من ٤٠ بئرا خلال السنوات الأربع القادمات تنتج أكثر من ثلث حاجة اليابان من النفط ومنتجاته.

* * *

هذه هي شركات البترول الثلاث التي تستخرج النفط من أراضي الكويت وسواحلها المغمورة بالماء وهي شركات تختلف في جنسياتها، فالأولى إنجليزية أمريكية، والثانية أمريكية، والثالثة يابانية. وتختلف في ارتباطاتها مع الحكومة وشروط امتيازاتها، وتختلف في كمية إنتاجها. ولكنها تسهم جميعا إسهاما فعالا في إحداث التطور السريع في مجتمعنا العربي الصغير مع تفاوت الأثر تبعا للحجم المادي لكل من هذه المؤسسات.

واستخراج النفط يمثل الصناعة الأولى التي تقوم عليها اقتصاديات الكويت والتي تكوّن عوائدها أكثر من تسعين بالمائة من دخل الدولة، وبذلك تعتمد البلاد اعتمادا يكاد يكون كليا على دخلها من النفط، فإن الكويت لا ضرائب فيها تذكر إلا الضرائب الجمركية التي لا تتعدى الأربعة بالمائة على جميع المستوردات (باستثناء بعض المواد الغذائية المعفاة) ورسوم التسجيل العقاري والجوازات ودعاوى المحاكم والغرامات. ثم هناك واردات الدولة من أموالها التي تستثمر في بريطانيا، وهي الأموال التي تفيض عن حاجة البلاد من عوائد النفط

فتبقى لدى انجلترا يشرف عليها مجلس يستثمرها في أعمال متوسط أرباحها السنوية من ٢ ـ ٢,٥٪.

أما الصناعات الأخرى في الكويت غير صناعة البترول، فإن أغلبها صناعات فرعية تتبع صناعة البترول بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو صناعات نشأت مع استخراج البترول تبعا للتطور الإجتماعي والإقتصادي والمعماري الذي صاحب ظهوره. لذلك سنكتفي في الحديث عن البيئة الصناعية، بما تحدثنا به عن نفط الكويت. وسنتحدث بعد ذلك عن تطور المجتمع المحلي في فترة ما بعد استخراج النفط بالكويت.

لمزيد من البحث عن بترول الكويت:

١ - بترولنا، نظرة في مشاكله ومستقبله، للاستاذ أشرف لطفي.

٢ - بترول الكويت، حاضره ومستقبله، للاستاذ سمير شما.

٣ - تقارير إدارة مالية حكومة الكويت.

٤ - الكويت في ماضيها وحاضرها، تقرير لشركة نفط الكويت.

٥ - أعداد مجلة Petroleum Times.

٦ - أعداد مجلة The Financial Times.

٧ - Booth. S.V. Petroleum Legislation.

٨ - الشرق الأوسط في الميزان الإستراتيجي، للأستاذ محمد كمال عبدالحميد.

٩ - أعداد (الكويت اليوم) المجلة الرسمية لحكومة الكويت.

١٠ - الزيت في الكويت (Oil in Kuwait) شركة نفط الكويت.

١١ - أعداد مجلة النفط اللندنية.

الفصل السابع

المجتمع المحلي قبل البترول وبعده

كان المجتمع الكويتي قبل البترول مجتمعاً بدوياً بحرياً، يشده إلى الصحراء نسب وإلى البحر سبب، فكان للبحر وللصحراء أثر واضح في تشكيل طبيعته على الصورة التي كانت عليها قبل التطور الذي أحدثه اكتشاف النفط. فقام على أرض الكويت مجتمع محلي يحمل في ملامحه أهم الصفات التي تحدد سمات المجتمعات المحلية، من حيث أن الكويت أرض ذات حدود معينة، يرتبط أهلها بمصالح اقتصادية واجتماعية مشتركة وتسودها مجموعة من العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية، مما يبعث في نفوس أهلها شعوراً بالولاء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه وينتمون إليه.

لقد عاش الكويتيون الأولون في كفاح عنيف في سبيل تأمين حياتهم على أرض الكويت فاستطاعوا أن يتغلبوا على كل الصعوبات والأخطار التي واجهتهم.

ووجد الكويتيون الأوائل أن الكويت بلاد قاحلة لا ظل فيها ولا ماء، فصنعوا السفن يركبون بها للغوص على اللؤلؤ ولنقل التجارة عبر البحار ولاستيراد ماء الشرب من شط العرب ولصيد الأسماك من الخليج. وكان تهديد الكويت متوقعاً في كل لحظة من الصحراء فاهتم الكويتيون بالفروسية واستعمال السلاح وازدادوا في الحيطة فأقاموا الأسوار حول ديارهم. وكانت أسواق الكويت ضعيفة لا تسد حاجتهم من الكسب فسافر الكويتيون للتجارة في الهند والعراق وعدن وجمعوا

ثروات طيبة، وكانوا دائماً يعودون إلى بلدهم الأول مهما تيسرت لهم الأمور في المهاجر. ثم جعلوا من الكويت سوقا تجارية تقصدها قبائل الجزيرة للتموين فيزيد الرخاء. وكان من أثر ارتباط المجتمع الكويتي بالبحر من جهة والصحراء من جهة أخرى أن نشأت صناعة السفن وأدواتها، وافتن الكويتيون فيها، كما نشأت صناعة الخيام وبيت الشعر وما إلى ذلك من صناعات بسيطة تحتاج إليها حياة البادية، ولكن هذه الصناعات ليست شيئاً بجانب ما كانت تدره أرباح الغوص على اللؤلؤ والتجارة والنقل البحري. لقد صنعت ظروف الكويت من أهلها ملاحين لهم خبرتهم ومهاراتهم، وتجاراً لهم أسلوبهم في الكسب والعمل، وكانت أملاك الكويتيين في الهند والعراق وغيرها تدر عليهم أرباحاً تساعد على رفع مستواهم في بلدهم الصغير.

وبهذا يمكن القول إن الكويت قبل النفط كانت في أحوال اقتصادية تتميز بها عن كثير من البلاد المجاورة، وبالأخص عن شقيقاتها في الخليج العربي، وأنه قد توافرت لأهلها ثروات طيبة قبل أن يشتموا ريح النفط على أرض الكويت. وأنهم كانوا من المرونة بمكان كبير بحيث استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم للظروف الطارئة، ولم تقعد بهم الأزمات الاقتصادية أو غيرها عن إمعان الفكر في إيجاد أحسن الوسائل لطلب الرزق من أجدى سبله لديهم.

هذه الحياة التي عاشتها الكويت قديما، حياة التجارة والملاحة، كان لها أثرها الواضح في تكوين عادات الكويتيين وصفاتهم المشتركة. لقد كان الغوص على اللؤلؤ وركوب الخيل والنقل البحري وحماية البلاد من الغزو المفاجىء، يتطلب نوعاً من العمل الجماعي والتضامن الكامل بين الأفراد. ومن هنا نشأت الروح الجماعية التي سادت مظاهر الحياة الكويتية إذ ذاك، تجلت هذه الروح في بنائهم جميعاً سور مدينة الكويت

عند شعورهم بالخطر القادم من الصحراء، وتتجلى في معاونتهم لمن قد يفلس من التجار بحيث يجمع زملاؤه له رأس مال جديد يبدأ به تجارته، وفي حل مشكلاتهم بوساطة اللجان الأهلية التي لا علاقة لها بالحكومة، وفي اتفاقهم على البدء بالتعليم المدرسي على أساس أهلي متبرعين له من أموالهم الخاصة. . . وظل هذا التكافل يغذي كل حركة في الكويت ويعمل عمله في نفوس الكويتيين، حتى صاروا يشعرون في أعماق نفوسهم أنهم أسرة واحدة مترابطة.

وكان من نتائج اعتماد الكويتيين على التجارة والملاحة في تأمين حياتهم أن اكتسبوا تفتحاً ذهنياً واستعداداً خاصاً لتقبل كل جديد مفيد، كما صاروا واقعيين في معالجة أمورهم وممارسة أعمالهم، فلا يذهب بأحدهم الخيال حتى يغيب عن أرض الحقيقة، ولا يتطوح وراء الأماني العراض حتى تنقطع صلته بالواقع، وأصبح قياسهم للأشياء بمقدار ما تؤديه من منفعة أو ضرر مادي، فقل بينهم التعصب الديني والتحزب المذهبي، ولم يجد أولياء الله الصالحون ولا رجال التصوف مكانا لهم بالكويت، كما لم توجد قبور تزار أو قباب تقدس، ولم يُدفن في مسجد ما من مساجد الكويت صالح من الصالحين أو محسن من المحسنين، بل اتسمت المساجد والجوامع بالبساطة التي يدعو إليها الدين في أماكن العبادة. كما كانت سمات البساطة واضحة في المآتم والأفراح بالكويت إذ لا تجد طقوسا معقدة بل تسلك مسلكا واقعيا عمليا. فقد يتزوج الكويتي ليلا ثم يعود إلى ممارسة عمله في الغد، وقد يودع عزيزا عليه في مثواه الأخير ثم يستأنف عمله في سفينته أو دكانه. إن الزبون حول الدكان، والسفينة على الشاطىء قد لا يتركان له الفرصة لكثير من المراسم والطقوس في الأفراح والأحزان على السواء.

هذه بعض الملامح الموجزة عن المجتمع المحلي قبل البترول.

وعندما بدأ إنتاج النفط عام ١٩٤٦ كانت بدايته إيذانا بدخول الكويت في طور اقتصادي واجتماعي جديد، وكان التطور الوافد عنيفا وشديدا في نوعه وكمه، فشرع يغزو بسرعة وغلظة ما ألفه المجتمع من عادات وتقاليد وقيم اجتماعية، محاولا دون إشفاق أن يُحِل محلها ويصنع بدلا منها مجتمعا جديدا لا تزال سماته وخصائصه في دور التكوين.

عندما بدأ الانتاج الواسع للنفط لم يكن هناك العدد الكافي من الأيدي العاملة التي يمكنها أن تنهض بالأعمال الكثيرة، فنية وغير فنية، في الصناعة الجديدة وما نتج بسببها من أعمال وصناعات فرعية، فالأيدي العاملة المتوافرة كانت تتمثل في البحارة الذين اضطروا إلى ترك مهنة الغوص على اللؤلؤ بعد تدهورها أو الذين اجتذبتهم الأعمال السهلة والأجور المغرية، وهؤلاء لم يُعَدوا أي إعداد لغير مهنهم الأصلية، ولذلك فإنهم ما كانوا يصلحون إلا لليسير من الأعمال التي لا تستلزم مهارات معينة أو إعداداً طويلا ودراسة خاصة. لذلك اضطرت البلاد إلى قبول عدد كبير من الأيدي العاملة القادمة من البلاد المجاورة فنية وغير فنية. وقد كانت هذه الهجرة من نوعين:

١ - هجرة فردية غير منتظمة وأحيانا غير شرعية.

٢ - هجرة منتظمة تقوم بها الحكومة والشركات بمن تستقدمهم من الفنيين بصورة خاصة، ليشغلوا الوظائف والأعمال الكثيرة الشاغرة التي يتعذر شغلها بواسطة المواطنين المحليين.

وقد شجع على الهجرة الأولى:

١ - انخفاض مستوى المعيشة، وضآلة الأجور، في البلاد المجاورة بالنسبة لما هي عليه بالكويت.

٢ - عدم وجود رقابة كافية بالنسبة للداخلين إلى الإمارة.

٣ - عدم وجود تنظيم مناسب لاستقدام الفئات التي تحتاج إليها البلاد، مبني على أساس إحصائي دقيق.

وقد كانت هذه الهجرة من الكثرة في بعض الفترات بحيث خشي من تفشي البطالة بين العمال المحليين. وقد دفع هذا الوضع المسؤولين بدائرة الشؤون الإجتماعية إلى إصدار الأنظمة التي تساعد على إتاحة الفرص للعمال الكويتيين في الميادين الجديدة للعمل، كما أعدت المعارف والشؤون البرامج التدريبية لإعداد العامل الكويتي الفني، ولمحو الأمية بين الكبار، حتى يمكن الإرتفاع بمستوى هذه الفئة إلى مستوى الكفاءة للأعمال التي ستناط بها، وأعطيت الأولوية في العمل للكويتي في جميع المناصب، فإذا تعذر الحصول على الكويتي عاملا أو موظفا، أعطيت الأولوية للعربي.

لقد كان هذا الإجراء إجراء ضروريا تستلزمه طبيعة الأوضاع السائدة في الكويت والمنطقة. فقد لوحظت هجرة شديدة غير مشروعة من إيران، كما لوحظ ميل من شركات البترول إلى توظيف الهنود والباكستانيين وسواهم من غير العناصر العربية. وقد بدأت الشركات تتفهم روح هذا المبدأ الذي تؤمن به الكويت وهو المحافظة على طابع الكويت العربي الخالص مهما كانت الظروف.

وكان من نتائج ظهور النفط اختفاء التنظيمات المهنية القديمة، وما كانت تستلزمه من نتائج اقتصادية واجتماعية. فقد كانت هناك تنظيمات متعارف عليها وتقاليد مألوفة بالنسبة للتجارة والغوص على اللؤلؤ والنقل البحري، بدأت تندثر تبعا لاندثار المهن ذاتها أو تبعا لتأثر المهن بالأوضاع الجديدة. وقد كانت تلك التنظيمات وبالأخص ما يتعلق منها بالغوص على اللؤلؤ خلاصة تجارب المئات من السنين، وعندما بدأت بالاختفاء لم يكن

هناك تنظيمات جديدة تحل محلها، فكان هناك فراغ أتاح المجال لكثير من الإرتجال والإقتباس والإجتهاد والتجريب.

وكانت أكبر الفرص المادية بعد تدفق البترول متاحة للمثرين والممولين الذين زاد ثراؤهم بسرعة كبيرة، نظرا للمجال الاقتصادي الخصب الجديد ونظراً لعدم وجود ضرائب على الدخل من أي نوع كان، فكان تضاعف ثروات الأغنياء أمرا واضحا، بينما كانت الفرص ضعيفة أمام البحارة ومن في مستواهم إذ أن الأعمال الجديدة تتطلب مهارات لا تتوافر فيهم، مما اضطرهم لقبول الأعمال ذات الأجور المنخفضة، وقليل منهم كان من سعة الأفق بحيث أدرك أهمية التدريب للحصول على عمل أحسن ودخل أطيب. وكانت الفرص أمام التاجر الكويتي فرصا ذهبية استفاد فيها من تجاربه السابقة في التجارة، وبدأ بالأخذ بالوسائل الحديثة في الادارة وشؤون التصدير والإستيراد، وبدأت لأول مرة في تاريخ الكويت تظهر الشركات الإقتصادية الحديثة بما فيها من نظام الأسهم ومجالس الإدارة من مقومات الشركات وقام أول بنك كويتي في تاريخ الكويت بل لعله أول بنك وطني في الخليج كله.[1] وأخذ الرأسمال الوطني يتحول من الإستثمار في مجاله القديم إلى ما استجد في البيئة من مجالات، فنشطت أعمال الإنشاءات الحديثة التي فرضها التطور الجديد كما نشطت المعاملات مع الشركات التي تعمل في البترول ومع الحكومة التي اتسع نطاق أعمالها وزخرت الأسواق بالبضائع بشكل لم تعهده الكويت من قبل، وذلك تبعا للطلب

(١) المقصود بنك الكويت الوطني الذي تأسس في العام ١٩٥٢، وهناك اليوم مجموعة من المصارف التجارية الوطنية منها: بنك الخليج، البنك التجاري، البنك الأهلي، البنك العقاري، بنك الكويت والشرق الأوسط، وبنك برقان. (الناشر).

المتزايد على السلع التي لم يكن يألفها السوق قبل ذلك، كما بدأ كثيرون من التجار يزاولون أعمالا لم تكن معروفة لديهم كأعمال التعهد والمقاولات، وأولئك الذين لم يألفوا تعقيدات الأنظمة الجديدة في المعاملات اتخذوا شركاء من غير الكويتيين يفيدون من خبراتهم ويشاطرونهم أرباحهم، إذ أن من الحماية التي فرضت للتاجر الكويتي الا تُعْطِي الحكومة وشركات النفط تعهداتها إلا لمن يحمل الجنسية الكويتية بصرف النظر عن شركائه.

وقد استدعى هذا التطور المفاجىء إعادة النظر في تخطيط المدينة والقرى تخطيطا شاملا طبقا لأحدث النظم في تنظيم المدن، وقد اشتملت خطة التنظيم هذه على كثير من الأهداف العمرانية - أهمها:

١ - تعيين مناطق لبناء مساكن حديثة يخضع إنشاؤها لشروط معينة بحيث تتوافر فيها المتطلبات اللازمة للمنزل الحديث.

٢ - تخصيص المواقع لإنشاء حدائق وملاعب وساحات عامة.

٣ - إيجاد مناطق تخصص للمنشآت الحكومية كالإدارات والمستشفيات والمدارس.

٤ - تعيين مناطق للصناعات المختلفة بعيدة عن المناطق السكنية مع تسهيل المواصلات إليها.

٥ - إنشاء طرق حديثة تليق بمستوى الكويت في طورها الجديد، وتستوعب وسائل النقل الحديثة، علما بأن عدد السيارات بالكويت من الضخامة بحيث أصبحت أخيراً ثاني دولة في العالم في عدد السيارات بالنسبة لعدد السكان (بعد أمريكا). وتحقيقاً لهذه الغاية التي استهدفها مشروع التنظيم فقد تم توزيع المناطق حول المدينة القديمة بحيث تشغل كل منطقة بما خصصت له وأصبحت المناطق السكنية مستعدة لتلبية الزيادة

المطردة في عدد السكان، مزودة بحاجتها من المساجد والمدارس وساحات اللعب والأسواق الخ.. كما بدىء في هدم جزء كبير من المدينة القديمة لفتح الشوارع الجديدة وإقامة المباني الحديثة. ونتج عن استملاك الدولة للكثير من الأراضي لتحويلها إلى منافع عامة أن ارتفعت أسعار الأراضي بصورة خيالية. وأصبح تثمين الأراضي القناة الأولى التي تتسرب منها أموال الحكومة إلى أيدي الأفراد فتحدث بذلك رواجا كبيراً في البلاد، ونشأت تبعا لذلك تجارة جديدة هي المضاربة في الأراضي بيعاً وشراء لتحقيق الأرباح العاجلة، وكانت عملية تشبه المقامرة بدأت نتائجها تظهر عندما بدأت بوادر الاستقرار، فهبطت الأسعار وأصيب كثير من المغامرين بأضرار مادية كبيرة. كما كان من نتيجة تثمين الأراضي أن حدثت مفارقات عجيبة في هبوط الثراء فجأة على هذا أو ذاك، إذ أن من المعروف أن كل أسرة كويتية كانت تمتلك بيتاً أو أكثر حتى أنه أصبح من الأدلة على كون الشخص كويتي الجنسية أن يكون مالكا لمنزل. فعندما ارتفعت أسعار الأراضي وبدىء في التثمين الحكومي نال المالكون للأراضي والبيوت ثروات كبيرة ما كانو يتوقعونها عندما كانت الأراضي في الكويت تمتلك برسم زهيد من البلدية أو تشترى بأثمان بخسة لا تكاد تذكر.

ونلمح في مشروع التنظيم الجديد للمدن والقرى ملامح اجتماعية طيبة، فقد اهتم المشروع بإنشاء الساحات الشعبية والرياضية وتوفير الخدمات العامة، إلى جانب الإهتمام بالشروط الصحية المعمارية الملائمة، وسواء استفادت المناطق السكنية من كل هذه الإمكانيات أم لم تفد فإنها تنتظر مزيداً من التطور والاستقرار في التقاليد لكي يكون كل مجتمع صغير من هذه المجتمعات خلية عاملة متكاملة.

وفي مناطق استخراج البترول قامت شركة نفط الكويت بإنشاء مدينة حديثة في قلب الصحراء وفرت فيها الكثير من الرعاية الاجتماعية إذ أن طبيعة أعمال شركات النفط التي تعمل في مناطق صحراوية وأماكن بعيدة عن العمران تلزمها أن توفر لعمالها وموظفيها المساكن والأسواق والملاعب والمستشفيات والمدارس وما إلى ذلك مما يبعث الاستقرار في نفوس العاملين في الشركات ويزيد من إنتاجهم. فهذه الأمور هي في الواقع جزء لازم من شروط العمل لابد من توفيره، حتى يمكن أن تنجز الأعمال بصورة مرضية، بل إن توفير هذه الخدمات كثيراً ما يكون ضروريا في مرحلة الإعداد للإنتاج وقبل أن تحقق الشركات شيئاً من الأرباح. وشركات النفط في الكويت تعتبر بعد الحكومة أكبر صاحب عمل وبالأخص إذا أخذنا بعين الاعتبار عمال وموظفي المقاولين والمتعهدين الذين ينجزون أعمالا مكملة لأعمال هذه الشركات.

وقد أدى هذا التطور إلى الشعور بالحاجة إلى إدارات تنهض بهذه المسؤوليات الجديدة، فأنشئت إدارات حكومية جديدة كدائرة الشؤون الاجتماعية، ودائرة شؤون الموظفين[1]، ودائرة الإسكان، ودائرة الأشغال العامة وغيرها، كما توسعت أعمال الإدارات القديمة وزادت أقسامها واختصاصاتها كدائرة المعارف والصحة والبلدية.

وكان لابد لهذا التطور والتوسع من نظم وقوانين جديدة فاستدعت الحكومة المختصين لتشريع القوانين التي تكفل سير الأمور في هذا المجتمع الجديد. وكانت المحاكم تسير في الفصل في قضايا المنازعات والجنايات على أسس من العرف السائد وتحل أغلب المشكلات حلا

---

(١) ديوان الموظفين، حسب التسمية الجديدة.

وسطا بوساطة رئيس المحكمة أو اللجان الأهلية أو بوساطة المتطوعين لمنع النزاع والشقاق بين الأهلين.

ولم تكن هناك محكمة بالمعنى المعروف إلا المحكمة الشرعية التي تطبق أحكام الشريعة الإسلامية في القضايا التي تعرض عليها والتي يحق لكل متخاصم أن يطلب نظر قضيته مهما كان نوعها أمامها.

وعندما كثر الوافدون إلى الكويت وتعقدت الحياة وكثرت أسباب المخاصمات شعر الجميع بالحاجة إلى تنظيم شامل للمحاكم يتفق مع متطلبات الحياة الجديدة، وبالأخص أن دار المعتمد البريطاني أصبحت المكان الذي يحتكم فيه الأجانب (غير العرب) في منازعاتهم فغدت هناك امتيازات أجنبية بالنسبة للقضاء ولم تعد سلطة الحكومة شاملة لكل من هو على أرض الكويت، لهذا فإن تنظيم المحاكم كان أول هدف التشريعات الجديدة، وعندما شعرت بريطانيا بهذه الجدية في تنظيم القضاء سلمت أمور محاكمة الأجانب إلى المحاكم الوطنية، بمناسبة العيد العاشر لجلوس سمو أمير البلاد في ٢٥ فبراير الماضي. وإنه من المتوقع أن تنظيم المحاكم إذا أحسن تطبيقه سيكون ذا أثر بعيد في تطوير الحياة بالكويت وفي إشعار الجميع مواطنين ووافدين بالإستقرار وبمزيد من الطمأنينة.

وبتوافر المال لدى الحكومة وشعور الكويتيين العميق أن دخل الحكومة حق مطلق لكل منهم وأن الجميع شركاء طبيعيون في هذه الثروة، وأنهم وقد تقاسموا على السواء متاعب الحياة بالكويت قبل النفط فإنهم أصحاب الحق في التمتع بخيرات الكويت بعد استخراج النفط، قامت المحاولات لتوفير أسباب المعيشة الرغدة للمواطنين وبدأت مجهودات الحكومة تحل تدريجياً محل التقاليد المحلية في التعاون والتكافل وتقديم المساعدة التي كانت تنبع تلقائياً من نفوس

المواطنين. وبدأ الناس يشعرون أن الواجبات التي يحسون أنها ملقاةٌ على عاتقهم يؤدونها بدون تبرم، وأنها جزء كبير من كيان مجتمعهم لا يقوم إلا بنهوضهم بها جميعاً، أصبحت موكولا أمرها إلى جهة قادرة على القيام بأعبائها دون حرج أو إرهاق، وهكذا أخذت الروح التطوعية في خدمة المجتمع تلقائياً تضعف عما كانت عليه من قبل، رغم المحاولات الجدية لتغذيتها في مجال التعليم وعند المدركين لأهميتها من حيث كونها من أهم مميزات المجتمع القديم. وتتمثل الخدمات التي تقدمها الدولة في مجالات كثيرة أهمها:

١ - مجانية التعليم الشاملة في جميع المراحل.

٢ - الخدمات الطبية المجانية بجميع أنواعها.

٣ - المعونات المادية لغير القادرين على العمل ولغير القادرين على إتمام الدراسة.

٤ - نظام الإسكان الحكومي لأصحاب الدخل المحدود.

٥ - وضع حد أدنى لدخل المواطنين، ودخول الحكومة طرفا في تحقيق هذا الحد الأدنى.

٦ - المساعدات الإجتماعية في الظروف الطارئة.

لقد كان الناس يعتمدون في أغلب هذه الأمور على أنفسهم فأصبحوا يعتمدون في تحقيقها على الدولة، الدولة التي تصرف من ميزانية دخلها أكبر من مصروفها. فهي بدلاً من أن تعادل الميزانية بفرض الضرائب أو بزيادة الضرائب أو بالإستعانة بالقروض الداخلية أو الخارجية كما تفعل كثير من الدول الأخرى، تصرف من ميزانية تعرف سلفاً أن هناك فائضاً من الدخل فيها.

وظهرت من جراء ذلك الروح الفردية تتحدى الروح الجماعية السابقة، وأخذت مظاهر الترف وكثرة المال بيد الأفراد تقلل من الإعتماد

على النفس وتحمل المشاق والصبر على المكاره. وأخذ كيان الأسرة الكبيرة التي كانت خلية هامة في المجتمع القديم تتفتت تدريجياً وأخذت البيوت الكبيرة التي كانت تضم الأسرة بأجمعها تتحول إلى أسر صغيرة، استقل كل منها بنفسه، كما أخذ كبير الأسرة يفقد مكانته المرموقة بين أفرادها ولم تعد قيمته في التوجيه والإرشاد كما كانت من قبل. وظهر القلق واضحاً بين أفراد المجتمع، يتجلى في حيرة المواطن العادي في الولاء لرب الأسرة أو للدولة، وفي الإعتراف بالنظام الجديد أو النقمة عليه. كما يتجلى القلق في عدم وضوح أهدافه وغاياته، وفي شكه بجدوى تقاليده ومثله الموروثة وفي تخبطه في الحكم على أمور كان الحكم فيها في ظل المجتمع القديم واضح المعالم.

لقد اهتزت أسس المجتمع القديم وانهار بعضها، واضطربت القيم الإجتماعية التي كانت لها سيادة على المجتمع الكويتي القديم اضطرابا شديدا، وأخذت التقاليد المرعية تتضاءل وتفقد تدريجياً عناصر وجودها وقدرتها على الثبات والإستمرار كما هي دون تبديل. فقد اختلفت أساليب الحياة وانتشر التعليم الحديث واتصل الناس بالعالم الخارجي اتصالا شديداً بوسائل العلم الحديثة، وسادت ثقافة جديدة خلال ذلك ليس لها حدود أو حولها قيود، وجاء الكويت فئات كثيرة من الناس تحمل كل فئة منها عاداتها وثقافتها وأسلوبها الخاص في الحياة فأدلت بدلوها في ميدان التطور الآخذ طريقه بالكويت، وأخذت كلها تتفاعل تفاعلا شديداً في بوتقة كبيرة تنصهر فيها عناصر مختلفة لكي تكوّن مجتمعاً ليس في مقدورنا الآن التنبؤ بكنهه، إذ أنه ما زال يوالي النمو والتشكل، على أنه بدأ ينال بعض التوجيه المقصود الذي يرمي إلى المحافظة على أحسن مميزات المجتمع القديم مع استقبال ما يتفق مع البيئة من عناصر الحضارة الحديثة وفي مرحلة الانتقال الخطيرة هذه التي

يمر بها المجتمع العربي بالكويت، أصبحت هناك مجاميع من الناس لكل منها أسلوبها الخاص وطابعها المميز في نمط التفكير وأسلوب المعيشة، وصار التنافر في العادات والتقاليد واضحا، وصار فريق من الناس بعد أن فقدوا تقاليدهم القديمة يطبقون تقاليد جديدة ليس لها أساس من واقع الكويت متأثرين بتقاليد البلاد الأخرى، حائرين بين ما يأخذون وما يتركون. وأخذت الشقة تبعد بين الجيل القديم والجيل الجديد رغم تعايشهما في مجتمع واحد، إذ أن التغيير قد حدث في فترة قصيرة من الزمن وبصورة سريعة قوية، فغدا هناك نمطان مختلفان من التفكير والنظر إلى الحياة، على أن الجيل الجديد يشق طريقه بعنف لكي يفرض نفسه على المجتمع بما يحمله من أفكار ما زالت في دور التبلور والتكوين.

ويمكننا أن نلحظ التنافر كذلك في المظاهر الخارجية للمجتمع الذي يدل على عدم الاستقرار، فبالكويت من يلبس الملابس الإفرنجية التي تفرضها الحكومة في مدارسها ومن يحتفظ بالزي العربي الكامل من عباءة وعقال وكوفية، ومن يكتفي بالجلباب والكوفية، وهناك من يفضل استعمال أصابعه في الطعام ومن يأنف من ذلك مستعملا الملعقة والشوكة والسكين. ومن يفضل الجلوس على الكراسي ومن يرى المحافظة على الطريقة البدوية في التربع على البساط رغم أنه يسكن فيلا حديثة مكيفة الهواء. وحتى في الإدارات الحكومية نرى إدارات تستعمل الشهور المعربة والمستعملة في الإقليم الجنوبي (يناير، فبراير، . . .) وأخرى تستعمل الشهور الإفرنجية غير معربة فتكتب (جنيوري، فبروري إلخ) وغيرها يكتب كانون ثاني وشباط . . . الخ. وبعضها يصر على ذكر الشهور العربية وأخرى لا ترى لزوما لذلك . . . الخ . .

إن هناك مجتمعا جديدا في دور التكوين بالكويت يمر الآن في

فترة انصهار يتفاعل فيها القديم والجديد، وتصب فيها ثقافات جديدة، وتلعب فيها المادة دورا خطيرا. وقد زعزع التطور الجديد الأسس القديمة التي قام عليها المجتمع ولكنه لم يستطع بعد أن يتم وضع أسس جديدة للمجتمع الجديد، أو يقيم تقاليد تحل محل التقاليد التي أخذت في الزوال، تنتظم الكويتيين جميعا كما كانت الحال من قبل، والتفاعل ما زال مستمرا وعملية التكوين ما زالت دائبة.

وإذا كان لا بد من التنبؤ بالصورة التي ستظهر أخيرا على الشاشة فإنها لا شك ستكون صورة معبرة عن التقاليد والعادات التي تنبع من طبيعة الكويت وتكون قادرة على الصمود والحياة في عالم حي متطور.

الفصل الثامن

تطور نظام الحكم والإدارة بالكويت

عندما بدأت الكويت تتخذ شكل المدينة المستقرة، وينمو في ربوعها مجتمع محلي صغير، أخذ الكويتيون يرتبون أمورهم ليتم لهم وضع أسس للكيان المستقر الذي أخذ يكبر بمن وفد إلى المجتمع الصغير، واستقر في البلد الناشيء. وكانت حاجة المجتمع الأولي إلى رئيس يرجعون إليه في أمورهم ويحتكمون إليه في شؤونهم ويمثلهم لدى المجتمعات الأخرى المجاورة، باعتباره اللسان الناطق باسم البلد الجديد. فعهدوا بالرئاسة إلى رجل منهم رأوا أنه أدناهم إلى الخير وأقربهم إلى الحق، فكان صباحا الأول جدّ الأسرة الحاكمة بالكويت. ولا ندري بالضبط متى تم هذا الاختيار، ولكننا نعلم أن صباحا تُوفي في عام ١٧٧٦م (١١٩٠هـ) بعد عمر طويل أنفق أغلبه في الحكم. وعندما توفي انتقلت الإمارة إلى عبدالله الأول الذي تذكر المصادر أنه كان رجلا بصيرا بشؤون الحكم شجاعا كريما حليما ذا رأي نافذ في حل المشكلات. ويبدو أنه قد استفاد من ممارسة والده الطويلة للحكم خبرةً حملت الكويتيين على المناداة به أميراً عليهم. كما يبدو أن الكويتيين قد وفقوا في اختيارهم لأمرائهم الأوائل من أسرة الصباح بحيث اطمأنوا إلى حكمهم ورئاستهم وغيرتهم على مصالح الكويت والكويتيين فغدا الحكم في الأسرة يتوارثه الأرشد الأكبر منهم وما كان الأمن ليستقر إلا على هذا النمط في مجتمع قبلي أو شبه قبلي، فإن تداول الحكم بين أسر متعددة لابد مثير للمنازعات والمشاحنات وعامل على اضطراب الأمن في البلاد، مما يغري الغزاة بالتدخل ويفتت المجتمع الذي بدأت تطمع فيه القوى المجاورة.

وظل الحكم في الكويت يسير على نمط متعارف عليه، طابعه

البساطة: الصباح يحكمون والأهالي يستشارون في كل كبيرة وصغيرة. ولم تكن هناك تعقيدات أو صعوبات، إذ أن التقاليد العربية المتبعة كانت كفيلة بحل كل المشكلات. حتى كان انقلاب الشيخ مبارك الصباح سنة ١٨٩٦م، ووثوبه إلى الحكم وفرض سيادته على البلاد، ذلك الإنقلاب الذي كان بدءاً لطور جديد في حياة الكويت وتاريخها الحديث. فقد جاء مبارك إلى الحكم بطريقة غيرعادية، وكان رجلا قويا معتداً بنفسه واثقا من مقدرته، طموحا إلى السيطرة، تواقا إلى الحكم المطلق المفرد. فاستقل برأيه عن الناس وأقصى الأهلين عن مجلس مشورته، وحصر الحكم في أبنائه وأحفاده. فكان ذلك جديدا على الناس، ولكنهم تقبلوه لمعرفتهم بالشيخ مبارك ولعلمهم بالظروف التي جاء فيها إلى الحكم، تلك الظروف التي تستدعي منه الحيطة والحذر، أضف إلى ذلك ما تلى حكمه مباشرة من دسائس ومؤامرات محلية وخارجية وقد ظل مبارك يحكم على طريقته طيلة عشرين عاما، تم له فيها تثبيت نظام حكمه وأصبح السيد المطلق. وأعلى من شأن الكويت في نفوس جيرانها وأسهم إسهاماً فعالا في أحداث الجزيرة، لكن مباركاً، على رغم ما عرف عنه من شدة وبأس وقوة سلطان، كان يسمح بكثير من الحريات التي كان الحكام في زمانه يستنكرونها، حريات التعبير والنقد والسلوك الشخصي. وما كان يعبأ بنقد الناس لأسلوبه الخاص في الحياة ورغبته في التمتع بأطايب العيش، إذ أنه إلى جانب ذلك كان الأول عند الروع وكان قائد الجيش في الغزوات وكان حريصا كل الحرص على أن يكون للكويت والكويتيين سمعة ومهابة خارج الكويت. إنه على ما يبدو من خلال تصرفاته، كان يعد نفسه ويعد الكويت لأمر أعظم وأكبر، حالت المقادير دون الوصول إليه.

ولما توفي الشيخ مبارك خلفه ابنه جابر ولكن حكمه لم يستمر إلا سنة واحدة خلفه بعدها أخوه الشيخ سالم. وكان رجلا مجدا شجاعا

محبوبا من الأهالي. ولكنه سار على نهج والده فلم يكن يستشير الكويتيين إلا فيما ندر وفي نطاق ضيق. يقول الشيخ يوسف بن عيسى في كتابه الملتقطات (ص ٢٦١) «ولما تولى إبنه - يقصد سالما بن مبارك - أعلن الحرب على الإخوان من عشيرة مطير ولم يراجع جماعته في ذلك فكانت العاقبة وخيمة على البلد وأهله فقد ذهبت الأموال الجسيمة والأرواح العزيزة في وقعتي حمض والجهرة...».

وتوفي الشيخ سالم بعد حياة حافلة بالمعارك. ونترك للشيخ يوسف بن عيسى الحديث عن إحدى المحاولات الجادة لإعادة الشورى بين الحاكمين والمحكومين بالكويت إذ يقول في كتابه المذكور (ص ٢٦٢) «لما توفي المرحوم سالم الصباح، وكان حاكم الكويت أحمد الجابر مبعوثا من قبل عمه سالم للمذاكرة مع عبدالعزيز السعود بالصلح، ولا ندري ما تكون النتيجة في قبول الصلح أو عدمه، رأيت أن أكلم وجهاء البلد في طلب مجلس مشاورة مع الحاكم في الأمور المهمة كيلا نقع فيما وقعنا فيه من الحروب زمن المرحوم سالم.. فتكلمت مع الجماعة منفردا، يعني واحداً بعد واحد، فوافقوا على ذلك، والبعض منهم أخر الموافقة على وصول الحاكم ولما وصل سمو الحاكم وعلم بالأمر لم يبد أي معارضة، بل اجتمع هو وجماعته عند خزعل بن مرداو، أمير المحمرة، واتفق الجميع أنه إذا بدا أمر مهم للبلد يرسل الحاكم إلى جماعته ويشاورهم في الأمر، وما اتفق عليه يمضيه. وتشكل هذا المجلس من الشيبان أهل الثروة بالاختيار دون الانتخاب، وأخذ الحاكم يواصل جلساته مع الجماعة في الأمور المهمة، فكانت ثمرة هذه المشاورة ضئيلة جدا وسببها كثرة الاختلاف بين الجماعة، إذ كل عضو يرى أنه هو المصيب، ولم يرجعوا لاتباع الأكثرية حتى أنه ورد لدار الاعتماد البريطاني كتاب بإمضاء (الأمّة) وقدمه المعتمد لسمو الحاكم وعرضه على أهل المجلس، وإذا به ينتقد أهل المجلس ويرميهم بالجهل

وعدم الصلاحية، ومن بعض كلامه «إنا نبرأ إلى الله من هذا المجلس الذي جمع أعضاء لم تعرف التمرة من الجمرة. . .» ويعلق الشيخ يوسف على هذا الخطاب قائلا: «إن الرجل صادق فيما كتب. . . .» ثم يقول «وبعد هذا الكتاب حصل فتور في جلسات المجلس، ولعل الحاكم رأى ما رأيت من صدق ما كتب الكاتب في الانتقاد لأنه لم يتأثر كما تأثر أعضاء المجلس بل لزم الصمت بتلك الجلسة. وبعد ذلك أخذت جلسات المجلس تتباطأ شيئا فشيئا حتى انفل المجلس بلا حل. وصار في خبر كان. .».

وهكذا انتهت المحاولة الأولى لتكوين مجلس استشاري بالكويت والعودة إلى نظام يشبه نظام المشورة الذي كان متبعا بين الحاكم والأهالي قبل عهد الشيخ مبارك. انتهت المحاولة بالفشل لأنها محاولة مغلوطة من أساسها، فهي لم تكن نابعة من التقاليد والشعور التلقائي بالحاجة إلى التشاور في شؤون البلاد كما كان الأمر من قبل، كما أنها لم تكن منظمة على أساس من الإنتخابات بحيث يصل إلى المجلس من يصلحون له، ثم أن المحاولة لم تأخذ بعين الاعتبار الشوط الذي سارته الكويت في التقدم بالنسبة لعهد ما قبل الشيخ مبارك. وكان أساس الاختيار هو الوجاهة والثروة بغض النظر عن الكفاءة والمقدرة. ولا أدل على عدم التوفيق في الإختيار، أن الأعضاء لم يكونوا يشعرون بمسؤوليتهم تجاه المهام التي أمامهم فهم يختلفون لأسباب شخصية، وهم يثورون من أجل كتاب موقع من مجهول غير محاولين معرفة أسباب نقمة صاحب الكتاب وعلاج تلك الأسباب وهم بعد ذلك يتخلفون ويتخلون عن عضوية المجلس بمحض إرادتهم ورغبتهم.

على أن هذه التجربة البدائية دلت على شعور الحاكم والمحكوم معا بأهمية المشاورة في تسيير شؤون الحكم، وأن الشورى هي السبيل لتجنب الكثير من المتاعب التي قد تتعرض لها البلاد.

انتهى هذا المجلس الذي أخبرنا عنه الشيخ يوسف بأنه انفل بلا حل، وسارت الكويت شوطا آخر من التقدم، فأنشأت بلدية الكويت عام (١٩٣٤) فمارس الكويتيون أول محاولة عملية للانتخاب بدعوة أعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الحل والعقد فيها لاجتماع تم فيه اختيار الأعضاء سريا ودون ترشيح. وهذه الطريقة في الإنتخابات طريقة أصبحت مألوفة في الكويت منذ ذلك الحين، وكل ما طرأ عليها من تغيير هو زيادة عدد الناخبين تبعا لزيادة عدد المتعلمين وزيادة السكان. وكان عدد الناخبين في المجالس الأولى للإدارات لا يزيد عن المائتين، ثم أخذ العدد يرتفع إلى الألفين. هذا الانتخاب الجزئي يلاحظ فيه المركز الإجتماعي للفرد أكثر من ملاحظة كفاءته وصلاحيته للعضوية. وهذه بقية من بقايا الروح القبلية لا تزال تعيش في الكويت.

ثم بدىء في تنظيم التعليم فانتخب مجلس للمعارف (عام ١٩٣٦) على نفس الأسس، وكان مجلسا المعارف والبلدية يمثلان الإتجاه الجديد نحو مشاركة المواطنين في الحكم، ولذلك فإنهما استحوذا على اهتمام الناس باعتبارهما البذرة الأولى التي سينمو منها التنظيم الجديد للحكم، وأنها التجربة التي يعول على نجاحها المصلحون. ولكن خلافا نشب بين مجلس المعارف والسلطة الحاكمة حل المجلس على أثرها، وأقيم مكانه مجلس معين، فاحتج بعض أعضاء المجلس البلدي على ذلك واستقالوا من العضوية فأعيدت الإنتخابات للبلدية بطريقة لم يرض عنها الوطنيون مما زاد في شقة الخلاف بينهم وبين السلطة فزاد تكتل المعارضين وبالأخص عندما منعت السلطة انتخاب بعضهم للعضوية، واستغل المعتمد البريطاني الفرصة للصيد في الماء العكر ولزيادة الشقاق بين المعارضين والحكومة، ولكن الوطنيين كانوا أوعى من أن يتركوا للأجنبي فرصة التدخل في خلافاتهم المحلية.

ورغبة في تكتيل القوى وتوجيهها وفي تقوية الروح الوطنية فكر المعارضون في انتهاج طريق يحمي الحركة الوطنية ويرعاها ويثبت مطالبها في نفوس المواطنين فألفوا جمعية سرية من إثني عشر عضوا، وجدت في الصحافة العراقية منبرا لنشر دعوتها بالإضافة إلى منشوراتها التي كانت تطبع بالعراق وتوزع بالكويت. وظلت تعمل في السر فترة من الوقت حتى أدركت أن التعبئة الشعبية قد وصلت حدا مناسبا وأن السلطات المحلية قد أصبحت مستعدة لتقبل مبادىء الحركة وتفهم سلامة مقصدها، حينذاك كشفت عن نفسها وأوفدت إلى سمو الحاكم الشيخ أحمد الجابر كتابا تاريخيا في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م) حمله إليه وفد من كبار رجال الكويت جاء فيه «إن الأساس الذي بايعتك عليه الأمة لدى أول يوم من توليك الحكم هو «جعل الحكم بينك وبينها على أساس الشورى التي فرضها الإسلام ومشى عليها الخلفاء الراشدون في عصورهم الذهبية» غير أن التساهل الذي حدث من الجانبين أدى إلى تناسي هذه القاعدة الأساسية، كما أن تطور الأحوال والزمان واجتياز البلاد ظروفا دقيقة تبعث المخلصين من رعاياك أن يبادروا إليك بالنصيحة راغبين في التفاهم وإياك على ما يصلح الأمر ويدرأ عنهم وعنك عوادي الأيام وتقلبات الظروف، ويصون لنا كيان بلادنا وحفظ استقلالنا، غير قاصدين إلا إزالة أسباب الشكوى، وإصلاح الأحوال عن طريق التفاهم مع المخلصين من رعاياك، متقدمين إليك بطلب تشكيل مجلس تشريعي مؤلف من أحرار البلاد للإشراف على تنظيم أمورها. وقد وكلنا حاملي كتابنا هذا ليفاوضوك على هذا الأساس، والله تعالى نسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه صالح البلاد».

الإمضاء ـ جماعتك المخلصون.

وقد تلقى سمو الأمير هذا الكتاب بروح طيبة ووافق على ما جاء

فيه، فبادرت اللجنة السرية التي أسمت نفسها إذ ذاك (بالكتلة الوطنية) بإجراء انتخابات محدودة فتكوّن المجلس[1] من أربعة عشر عضوا بادر بدوره في انتخاب رئيس له، وكان أول ما عمله المجلس التشريعي هو وضع قانون أساسي يعتبر أول وثيقة من نوعها في تاريخ الكويت، وبعد تردد من سمو الأمير وقّع الوثيقة التي تنص على ما يلي:

المادة الأولى: الأمّة مصدر السلطات ممثلة في هيئة نوابها المنتخبين.

المادة الثانية: على المجلس التشريعي أن يشرع القوانين الآتية:

١ - قانون الميزانية.
٢ - القضاء.
٣ - الأمن العام.
٤ - قانون المعارف.
٥ - الصحة.
٦ - العمران.
٧ - الطوارىء.
٨ - كل قانون آخر تقتضي مصلحة البلاد بتشريعه.

المادة الثالثة: مجلس الأمّة التشريعي مرجع لجميع المعاهدات

(١) لمزيد من التفاصيل عن قيام مجلس الأمة التشريعي في الثلاثينات راجع: د. عبدالله عمر العمر - إرهاصات الديمقراطية في الكويت، ود. فلاح عبدالله المديرس - ملامح أولية حول نشأة التجمعات والتنظيمات السياسية في الكويت ١٩٣٨ - ١٩٧٥، اصدار دار قرطاس للنشر والتوزيع - ١٩٩٤ . (الناشر).

والامتيازات الداخلية والخارجية والإتفاقيات. وكل أمر يستجد من هذا القبيل لا يعتبر شرعيا إلا بموافقة المجلس وإشرافه عليه.

المادة الرابعة: بما أن البلاد ليس فيها محكمة استئناف فإن مهام المحكمة المذكورة تناط بمجلس الأمة التشريعي حتى تتشكل هيئة مستقلة لهذا الغرض..

المادة الخامسة: رئيس مجلس الأمة التشريعي هو الذي يمثل السلطة التنفيذية في البلاد. (وقد وقع سمو الأمير هذه الوثيقة في ٢ يوليو سنة ١٩٣٨).

كانت بداية موفقة للمجلس ما كان أحد يحلم بها وكانت قفزة إلى الأمام ما استطاع الكثيرون هضمها، وقد نهض المجلس بالأعباء الثقيلة الملقاة على عاتقه وسار بخطوات قوية، ولكنه سرعان ما اصطدم بكثير من المشكلات الداخلية فنمت في وجهه المعارضة من الكثيرين الذين لم يكن لديهم الإستعداد لتقبل هذا النظام الجديد، أو الذين سحبت منهم الإحتكارات التي كانوا يتمتعون بها دون الناس، أو الذين ضاعت منهم إمتيازات اكتسبوها دون حق. وظهرت المعارضة حتى من بعض قادة الحركة والمبشرين بها، ولم تمض شهور حتى وقع الإصطدام بين المجلس والسلطة المحلية، أدى إلى حل المجلس وتكوين مجلس آخر بالتعيين سمي مجلس الشورى من أربعة عشر عضوا منهم أربعة من الأمراء غير الرئيس والباقون من الأعيان. وقد كان هذا المجلس ضعيفا في تكوينه وفي مقدرته على التنفيذ فتسلل أعضاؤه الواحد تلو الآخر حتى انتهى أمره فكان آخر مجلس موحد في الكويت.

ويمكن القول أن حركة المجلس التشريعي هي الحركة الوطنية الأولى التي قامت على أساس من التنظيم، ولم يأت بعدها إلى الآن حركة شعبية تشبهها نظاما. وقد صحب الحركة بعض الأخطاء المبنية

على حسن النية وطيب القصد، وكادت المصادمات بين رجال الحركة والسلطات المحلية تؤدي إلى كثير من المجازر، وبالفعل كان ختامها عددا من الضحايا وعددا من المشردين والمعتقلين، ولكنها بلا شك وضعت الأسس الأولى للمحاولات الإصلاحية والتنظيمية التي تمت بالكويت فيما بعد، وبالأخص بعد ظهور البترول.

وقد كانت الفترة التي تلت تلك الحركة ـ حركة المجلس التشريعي الأول ـ فترة حرجة في تاريخ المجتمع الكويتي، وكانت الجراح ما زالت دامية، والنفوس مفعمة بالكدر، فعاشت البلاد في ظل ركود سياسي محض، وباعد الناس بينهم وبين التفكير في أية حركة وطنية، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية تهدد البلاد العربية بويلاتها فاختفت المشكلات المحلية بالكويت، وشغل الناس بأحداث الحرب ومطالب الحياة اليومية عن كل شيء، فظلت الكويت في الفترة من سنة ١٩٤٠ إلى ١٩٥٠ في شغل بالحرب وما تلا الحرب عن بحث نظم الحكم وشؤون السياسة المحلية. ولكن سنة التقدم والتطور الموضوعي بالنسبة للناس والأشياء كانت تعمل عملها. وتفجر النفط وتطورت اقتصاديات الكويت وإمكانياتها المادية والمعنوية تطورا كبيرا أدى إلى ظهور كثير من الحاجات الجديدة للمجتمع، لم يكن في حاجة إليها من قبل، وانتشر التعليم إلى درجة كبيرة، واتصل الناس بعوامل التثقيف الخارجية، وقامت جمعيات الشباب وأنديتهم تعبر بشكل جديد عن الوعي الجديد وظهرت الصحافة المحلية فكانت ألسنة لهذا الوعي، ومن خلال الأندية والجمعيات بدأت المطالبات تتخذ شكل إصلاحات اجتماعية واقتصادية، كإنشاء البنوك والشركات الوطنية وإقامة المساكن للمعوزين وحماية الرأسمال الوطني من غائلة الهجرة الأجنبية. ثم أخذ الوعي الجديد ينادي بمشاركة الشعب في الحكم بادئا بانتخاب

مجالس للإدارات الهامة بالبلاد، وقدمت عرائض متعددة لسمو الحاكم. وتفاءل الناس خيرا بحكمه لما عرف عنه من عطف على الكويت وحب للخير، ونجحت الحركة الجديدة وأخذت الأمور تسير سيرا جديدا. وكان التعاون واضحا بين أصحاب الوعي الجديد ومن تأثر بهم من الرجال المخضرمين وبين السلطات المحلية.

وكان دور الصحافة المحلية والصحافة العربية بصورة عامة ذا شأن كبير في تطور الوعي الوطني والقومي بالكويت، ويبدو أن السلطات المحلية رأت أن الصحافة الكويتية قد تطرفت في مقالاتها وملاحظاتها، فأوقفت الصحف لوضع قانون للصحافة، ثم عادت الصحافة.. إلى الظهور على مضض، وكانت الأندية التي تمثل اتجاهات الرأي لدى الشباب بالكويت، تعينها الحكومة ماديا للقيام بنشاطاتها المختلفة، تغذي هذه الصحف، وفي مجتمعاتها كانت تتبلور الأفكار الجديدة. ومنها تخرج المطالب الشعبية.

وفي فبراير ١٩٥٩ بلغ الحماس أشده لدى الشباب، بحيث اعتبرت الحكومة أن في نشاط الصحافة والأندية والجمعيات تحديا لها وإنكاراً لوجودها، فأغلقت الأندية والجمعيات وأوقفت الصحافة، على أن يُعاد تنظيمها مرة أخرى. وهي لا تزال موقوفة للآن.

وقد شعرت الحكومة أخيرا بضرورة وضع تخطيطات جديدة للكويت وبضرورة وضع قوانين تنظم شؤونها فاستدعت الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي بدأ بتنظيم المحاكم والميزانية ووضع القوانين المختلفة التي تحتاجها البلاد التي تساير التطور الجديد في الكويت. وهكذا نرى أن الحكومة بدأت تتبنى بعض المطالب الشعبية الهامة التي دعت إليها الهيئات الشعبية المنحلة.

والآمال التي يعقدها المثقفون من شباب الكويت بالنسبة لمستقبل

البلاد ويرجون أن تتحقق في القريب العاجل، والتي يأملون أن تتكاتف القوى جميعها للوصول اليها هي:

١ - إعلان استقلال الكويت.[١] فالبلاد قد بلغت درجة من التقدم والإزدهار الثقافي والاقتصادي بحيث تستطيع أن تحكم نفسها، ولا حاجة بها لأن تكون تحت حماية أو انتداب من أجنبي.

٢ - إعلان الدستور[٢] الذي يحكم به الشعب وتتقيد به السلطات، فالكويت لا تزال تشكو من تداخل الإختصاصات وتضاربها.

٣ - مشاركة الشعب في تحمل المسؤولية على أساس انتخابات ديمقراطية[٣].

٤ - إطلاق حرية التعبير في نطاق المصلحة العامة التي تحقق رفاهية الشعب وتحفظ له كرامته.

٥ - تنظيم الإدارة والإستعانة بالدماء الجديدة الصالحة.

٦ - التنظيم الإقتصادي الذي يضمن طمأنة الناس على مستقبلهم.

هذه هي المطالب الرئيسية التي تشغل بال الشباب، والتي يأمل الجميع أن تتحقق في المستقبل القريب.

ولم تكن بريطانيا في معزل عن التيارات التي تدور بالكويت،

---

(١) نالت الكويت استقلالها التام في ١٩ يونيو ١٩٦١ . (الناشر).

(٢) وضع المجلس التأسيسي الدستور وصادق عليه الأمير في ١٩٦٢/١١/١١ ويتضمن الدستور ١٨٣ مادة تضمها خمسة أبواب: الدولة ونظام الحكم، المقومات الأساسية للمجتمع الكويتي، الحقوق والواجبات العامة، السلطات، أحكام عامة وأحكام مؤقتة. (الناشر).

(٣) جرت انتخابات المجلس التأسيسي في ٣١ ديسمبر ١٩٦١ وتبعتها انتخابات مجالس الأمة لسبعة فصول تشريعية ١٩٦٣، ١٩٦٧، ١٩٧١، ١٩٧٥، ١٩٨١، ١٩٨٥، ١٩٩٢ . (الناشر).

فرغم أنه من المعروف أن بريطانيا لا حق لها في التدخل في شؤون الكويت الداخلية فإنها تترقب جميع الأحداث التي تمس مصالحها المادية والمعنوية، ففي أثناء حركة المجلس التشريعي عام ١٩٣٨ توجست خيفة من الاتجاهات الجديدة للحركة. فقام مندوبها بالكويت بالإتصال ببعض المواطنين وحضهم على طلب مستشار إنجليزي كما هو الشأن بالبحرين. وكان يرمي إلى الإفادة من الحوادث بضرب المجلس بالسلطة المحلية الحاكمة، لكن الوطنيين أفهموه أنه ليس من أهداف الحركة في قليل أو كثير إحداث تغيير في وضع الأسرة الحاكمة، وأنهم لا يؤثرون بديلا عن حاكمهم بل أنهم وراءه في دعم الحكم المحلي المبني على حياة انتخابية سليمة.

وما يهم بريطانيا في الوقت الحاضر هو، بالدرجة الأولى، المحافظة على مصالحها الإقتصادية ممثلة في البترول الذي تغذي به الكويت حوالي نصف حاجة بريطانيا وقد أدركت بريطانيا ما أصابته الكويت من تقدم ووعي فتنازلت عن كثير مما كانت تستأثر به في علاقات الكويت الخارجية وأصبحت إتصالات حكومة الكويت بالخارج إتصالات مباشرة في كثير من الأمور، كما أصبحت التأشيرات لدخول الأجانب للكويت من اختصاص الكويت بعد أن كانت تختص بها الوكالات البريطانية. وأمم البريد والبرق والتليفون بعد أن كان تابعا للمؤسسات البريطانية.

وفي خطاب لسمو أمير الكويت بمناسبة العيد العاشر لجلوسه أشاد سموه بالخطوات الواسعة «التي[١] قطعناها في السنوات العشر الماضية وللمكانة المرموقة التي كسبناها لإمارة الكويت بفضل العلاقات

---

(١) فقرة من خطاب سموه في ٢٥ فبراير ١٩٦٠ .

الطيبة السائدة بين حكومتنا وحكومة صاحبة الجلالة والتفاهم التام الذي ساعد على حفظ كيان هذه الإمارة وعلى تقدمها وازدهارها وعلى إنجازها في هذه الفترة القصيرة عدة خطوات مباركة من دخولها في العضوية العالمية لعدد من المنظمات الدولية وفرض سلطتها على كافة المقيمين فيها وإصدار عملة كويتية في القريب العاجل إن شاء الله».

وهكذا يقوم كيان الدولة بالكويت اليوم باعتبارها دولة ذات استقلال داخلي تام، تمارس بعض الحقوق الخارجية مع الدول الأخرى والمنظمات الدولية، رغم أن لبريطانيا الصفة الرسمية في تمثيلها الخارجي. ولا يوجد بالكويت سفارات أو مفوضيات أجنبية عدا دار المعتمد البريطاني[1] ولكن توجد قنصلية أمريكية ووكيل تجاري سعودي يزاول الأعمال القنصلية، ووكيل تجاري باكستاني.

والنية متجهة، والاستعداد موجود، لكي تمارس الكويت حقها في التمثيل السياسي الخارجي واستقبال الممثلين السياسيين للدول الصديقة، وبالأخص العربية. وقد قامت محادثات أولية مع الجامعة العربية لقبول الكويت عضواً[2] بها. فإذا تمّ ذلك كان بداية لالتحاق الكويت بهيئة الأمم[3] والإعتراف بها دولة مستقلة. ولا شك أن وضع

---

(١) قام تمثيل دبلوماسي بين دولة الكويت والعديد من البلدان بعد استقلالها ونشأت بين دولة الكويت والمملكة المتحدة علاقة دبلوماسية على مستوى السفارات. (الناشر).

(٢) أصبحت الكويت عضواً في جامعة الدول العربية في ١٩٦١/٧/٢٠، وكان الاستاذ عبدالعزيز حسين المؤلف، أول مندوب للكويت في جامعة الدول العربية. (الناشر).

(٣) أصبحت دولة الكويت العضو الحادي عشر بعد المائة في الأمم المتحدة في مايو ١٩٦٣ . (الناشر).

الكويت الحالي وبالأخص من الناحيتين الاقتصادية والثقافية يؤهلانها لأن تأخذ مكانها المناسب في المحافل الدولية.

ويقوم نظام الحكم الحالي[١] على أساس أن سمو الأمير الرئيس الأعلى لجميع السلطات، وكلمته هي القول الفصل في كل شؤون. ويعاونه مجلس مكون من ثمانية من أعضاء الأسرة الحاكمة يسمى المجلس الأعلى[٢] وهذا المجلس هو الذي يقر القوانين ويصادق على الأنظمة، ويوافق على الميزانية، كما يوجه الأمور الهامة للإمارة، ويحدد الإتجاهات المختلفة لسير الأعمال الرئيسية في البلاد، ثم يرفع كل ذلك لسمو الأمير لكي يكون له الرأي الأخير فيه.

وإلى جانب المجلس هناك اللجنة التنظيمية. وهي لجنة عينت منذ أكثر من عام، مكونة من سبعة من رجال الكويت وثلاثة من أعضاء المجلس الأعلى والغرض الرئيسي من تكوين هذه اللجنة هو إصلاح الجهاز الإداري للإمارة وتقديم المقترحات في هذا الصدد وفي غيره من الأمور التي تساعد على سير الحياة في الإمارة إلى المجلس الأعلى.

وعندما كان عدد الإدارات (وهي تقوم مقام الوزارات في البلاد الأخرى) قليلا، كان للإدارات المهمة منها مجلس منتخب أو معيّن، يساعد على سير العمل بالإدارة، ويبحث سياستها العامة، أو يعاون

---

(١) وفقا للمواد ٥١، ٥٢، ٥٣ من الدستور فإن السلطة التشريعية يتولاها الأمير ومجلس الأمة وفقاً للدستور، والسلطة التنفيذية يتولاها الأمير ومجلس الوزراء على النحو المبين بالدستور، والسلطة القضائية تتولاها المحاكم باسم الأمير في حدود الدستور. (الناشر).

(٢) أصبح اليوم مجلس الوزراء ويشارك فيه وزراء من أعضاء مجلس الأمة وخارجه بمن فيهم أعضاء من الأسرة الحاكمة. (الناشر).

رئيسها ومديرها في الشؤون الرئيسية المتعلقة بها. وعندما تعددت الإدارات بعد ذلك، بقيت المجالس للإدارات الأولى فحسب، وهي إدارات المعارف والبلدية والصحة والأوقاف، وفي الوقت الحاضر يوجد مجلسان فقط هما مجلسا المعارف والبلدية ومن المتوقع تعيين أو إنتخاب مجالس أخرى للإدارات الهامة الباقية.

وقد كانت أول إدارة أنشئت بالكويت هي إدارة الجمارك التي أنشأها المرحوم الشيخ مبارك الصباح عام ١٨٩٩ وفرض ضريبة على الواردات ٥٪ ،كان سسبب نشأتها حاجة البلد إلى دخل منظم تبعاً لنمو الكويت وكيانها الجديد الذي وضع أسسه الشيخ مبارك. واليوم توجد بالكويت الإدارات الآتية:

١ - إدارة الأشغال العامة.
٢ - الشرطة والأمن العام.
٣ - إدارة الصحة العامة.
٤ - إدارة الجمارك.
٥ - إدارة المطبوعات والنشر.
٧ - إدارة العدل.
٨ - إدارة أملاك الحكومة.
٩ - إدارة التسجيل العقاري.
١٠ - إدارة المالية.
١١ - إدارة الكهرباء والماء والغاز.
١٢ - إدارة المعارف.
١٣ - إدارة الميناء.
١٤ - إدارة البلدية.
١٥ - إدارة الشؤون الإجتماعية.

١٦ - إدارة البريد والبرق والتليفون.
١٧ - إدارة الأوقاف العامة.
١٨ - إدارة الأيتام.
١٩ - إدارة شؤون الموظفين. (ديوان الموظفين)
٢٠ - سكرتارية الحكومة.
٢١ - الجوازات والجنسية.
٢٢ - الإذاعة والتلفزيون.

وواضح أن هذا العدد كبير بالنسبة لإمارة الكويت الصغيرة، ولذلك يتجه الرأي إلى تحويل بعض الإدارات إلى مصالح ثم ادماجها بالإدارات الكبيرة.

ويرأس كل إدارة رئيس من الأسرة الحاكمة (يعتبر في مقام الوزير في البلاد الأخرى) وربما كان الرئيس مسؤولا عن أكثر من دائرة، ويقوم بالإدارة مدير[١] يشترط أن يكون كويتي الجنسية، ويفترض فيه أن يكون فنيّاً في إدارته، متخصصا في مجال عمله، خبيرا في تصريف أمورها. وهو المسؤول المباشر عن كل شؤون الإدارة.

وإلى جانب هذا المجلس والإدارات هناك مجلس الإنشاء والتنمية الاقتصادية الذي حل محل مجلس الإنشاء الذي أسس منذ بضع سنوات لمراقبة حركة التخطيط والإنشاء بالكويت. والمجلس الجديد الذي كون هذا العام وضعت له أنظمة جديدة وحددت صلاحيته بحيث يكون مسؤولا عن وضع الخطط اللازمة لجميع الإنشاءات الهامة للدولة، مستعينا في ذلك بلجنة فنية للتخطيط ومتعاونا مع جميع المديرين كما أنه المسؤول عن تقديم المشورة بالنسبة للتخطيط الإقتصادي للدولة.

---

(١) بمثابة وكيل وزارة الآن. (الناشر).

هذه التشكيلات التي تمثل النظام الإداري الحالي للإمارة، قامت على أساس التشكيلات القديمة التي كانت تتبعها البلاد عندما كانت الأمور فيها تسير على نمط مبسط لا تعقيد فيه ولا مشكلات وهي إذا كانت وافية بالغرض أو بعضه الآن فإنها لابد أن تتطور بحيث تكون صالحة للنهوض بالنظام الإداري لهذا البلد الناشىء الذي يتطور إجتماعيا وثقافيا واقتصاديا بسرعة فائقة.

الفصل التاسع

قصة التعليم في الكويت

الكويت بلد تجاري منذ نشأت، والكويتيون تجار بحكم موقع بلادهم وطبيعة اعمالهم، والتجارة مهنة ورثوها أبا عن جد، ومارسوها على الماء واليابسة، ومع بدو الصحراء وأبناء البلاد المجاورة، والتجارة تستدعي ضبط حسابات وكتابة رسائل لذلك كانت قضية الكتابة والقراءة ومعرفة شيء من العمليات الحسابية من لوازم التاجر الناجح، أما التاجر الأمي فانه إما أن يتأخر عن الركب بسبب عاميته، فلا يستطيع المتاجرة بنفس المستوى الذي يكون عليه القارىء الكاتب من التجار، وإما أن يستعين بغيره فيسلط على نفسه من قد يتحكم في أسرار معاملاته. هذا وللإسلام فضل كبير في طلب الكويتيين العلم وفي حثهم على تعلم القراءة والكتابة، فتلاوة القرآن وأداء شعائر الدين والزكاة والمواريث كلها تستدعي الإلمام بالقراءة والكتابة، مضاف إلى كل ذلك كثرة أسفارهم في سفنهم الشراعية وسعيهم للتجارة خارج الكويت، وكثرة معاملاتهم مع غيرهم من أبناء الأقطار المجاورة والبعيدة. كل هذا قد مهد السبيل لتحبيب التعليم إلى نفوسهم مدركين فائدته المادية والروحية معا، وعاملين على طلب المزيد منه ما سنحت الفرص.

وقد اشتهرت كثير من المساجد في الكويت بحلقات الوعظ والأحاديث التي كانت يعقدها فيها علماء الدين الذين يؤمون الكويت من العراق ومن نجد ومن الإحساء، أغلبهم يتكسب بما لديه من معرفة في الفقه أو الحديث وفي بعض الأحيان الشعر والأدب القديم.

بدأ التعليم في الكويت في الكتّاب الذي كان يحتل دائماً جانبا من بيت صاحبه. وكان يسمى الكتّاب «المطوّع» كما كان يسمى معلم الكتّاب مطوعاً كذلك أو ملّا، أما إذا كان في رأي الناس عالماً جليلا فإنهم يخلعون عليه لقب «الشيخ».

وفي الكتّاب يحفظ القرآن الكريم كله أو بعضه، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة، وشيء من الحساب. ومن ختم القرآن احتفل به في موكب يطوف بيوت المدينة يرتل فيه الأطفال أبياتاً في مدح النبي ومدح العلم، فيكون في ذلك خير دعاية للكتّاب إلى جانب ما يجبى في هذه «الزفة» من دراهم وتعود على جيب «المطوّع» بالخير الوفير.

وقد اشتهرت بعض الأسر الكويتية بالتعليم في الكتاتيب وتوارث أفرادها التدريس فيها أباً عن جد، وما كان هنالك من داع لموهبة خاصة أو إعداد خاص في هذا المجال.

ولم تكن الكتاتيب مقصورة على الذكور فحسب بل إن للبنات كتاتيبهن، ولبعض «المطوّعات» من كبيرات السن كتّاب للأطفال من الجنسين. ولم يكن يعنى في كتاتيب البنات بأكثر من تلاوة القرآن، فما للمرأة إذ ذاك من حاجة إلى القراءة والكتابة. ولكنه كان يعنى إلى جانب ذلك بأنواع من الترفيه لا توجد في كتاتيب الذكور كالرقص والغناء المحليين داخل الكتاب والرحلات القصيرة. والنزهات الخلوية، لا يشذ عن ذلك إلا قليلات كن يرين أن تدريس القراءة والكتابة للبنات لا يعود عليهن بضرر كبير.

و «المطوّع» في الكتّاب هو السلطة المطلقة في كل شيء، فمن حقه أن يستخدم الأطفال في شؤون منزله الخاصة وله أن ينزل بمن يريد منهم من ألوان العقاب ما يريد، وأن يرسل الأطفال في مجموعتهم إلى منزل في الحي لكي يقرأوا أجزاء من القرآن على مريض فيه حتى يتم له

الشفاء أو يبارك الله في العلاج. وربما ذهب «المطوّع» نفسه معهم يشاركهم في قراءة القرآن وفيما يقدم من شراب وطعام، ثم يستولي دونهم على ما يقدمه أهل المريض من مال، وللمطوع مساعدون يتدربون لديه ويساعدونه على حفظ النظام، ويقومون بجمع «الخميسية» وهي منحة المطوع، دراهم قليلة يدفعها كل طفل يوم الخميس من كل أسبوع.

ومر على الكويت وقت كان التنافس فيه بين الكتاتيب شديدا، إذ كان كل كتّاب يحاول أن يلفت نظر المجتمع إليه حتى يكتسب أكبر سمعة ويستولي على أكبر عدد من التلاميذ. وكانت وسائل الدعاية ولفت النظر المباراة في حسن الخط، وكانت تتم بأن يذهب المتبارون في الخط إلى طائفة من التجار في محلاتهم لعرض خطوطهم عليهم، والتجار هم الحكم الفيصل في المباراة. وعرض الخطوط على التجار واتخاذهم حكاما في الأمر يرمز إلى تأكيد الصلة القائمة بين التجارة والتعليم بالكويت منذ قديم الزمان، «فالكتّاب» منذ أول وجوده بالكويت كان استجابة لحاجة البيئة الملّحة، نرى من مظاهر ذلك، خلاف ما أشرنا إليه، أن دراسة حسابات عملية الغوص على اللؤلؤ وحسابات سفينة التجارة كانت من أهم ما يدرس في «الكتّاب» عندما كان كل من الغوص ومن «السفر» في عنفوانه وازدهاره.

وقد كانت هناك كتاتيب تعمل طوال العام وأخرى تعمل بعض العام لأن أصحابها يذهبون للغوص على اللؤلؤ أو للتجارة البحرية فيغلقون كتاتيبهم لأنهم قد لا يجدون من يحل محلهم فيذهب الأولاد إلى أقرب كتّاب آخر. يدل هذا على أن مجال الكسب في الكتّاب كان محدوداً بحيث يفوقه الغوص بما فيه من تعب ومخاطرة.

وقد قام بعض كبار التجار بفتح كتاتيب من أموالهم الخاصة لتعليم

أبنائهم وأبناء الفقراء، وكان المستوى فيها أحسن من الكتّاب المألوف إذ ذاك، ولكن هذه الكتاتيب لم تتطور إلى مدارس ولم تعمر كثيراً لاعتمادها على التبرع الفردي من الأسرة الواحدة. كما كانت هناك بعض المدارس الخاصة يدرس بها من أنهى دراسته في الكتاب مسك الدفاتر واللغة الإنجليزية تأخذ أجوراً عالية نسبياً. وقد انتشرت هذه المدارس الخاصة خلال اتساع حركة التجارة في الكويت، وكانت في الغالب من ذات المعلم الواحد ولعدد محدود من الطلاب.

وكانت «الديوانية» وهي مجلس الرجال الملحق بمنازل الأسر الكويتية، بمثابة مؤسسة اجتماعية ذات أثر عميق في المجتمع الكويتي، وهي في الغالب امتداد لعادة المجالس البدوية عند سيد العشيرة. وفي الديوانية لا يلتقي أبناء الأسر فحسب بل يلتقي رجال الحي بأجمعه، وربما سواهم في المناسبات، في أوقات معينة كل يوم أو ليلة ومتعارف عليها بالنسبة لكل ديوانية. ويتم في الديوانيات التزاور في الأعياد والمناسبات، وبها تبحث شؤون الحي، وتتذاكر أسعار البضائع في السوق وتتداول منها الأخبار، وتدار في الديوانية القهوة العربية لكل قادم، وتفتح في رمضان طوال الليل يرتل فيها القرآن الكريم ويقدم فيها الإفطار لفقراء الحي.

وفي الديوانية تعرف مراتب الناس من مجالسهم، ومن الديوانية وحجمها وسمعتها يعرف صيت الأسرة ومكانتها. لقد كانت الديوانية بالكويت هي النادي والجمعية والمركز الاجتماعي والمقهى لأبناء الحي. ولقد يكون في الحي الصغير الواحد العديد من الديوانيات تتفاوت حجما ورواداً، وربما تفاوتت مواعيد فتحها كذلك وإن كان الغالب أن ذلك من قبيل العصر وفي فترة ما بين صلاة المغرب والعشاء ثم فترة ما بعد صلاة العشاء.

كان بعض أصحاب الديوانيات من رجال البيوتات ممن له اطلاع وعلم في الدين والأدب، فكانت تقرأ في ديوانيته الكتب وتلقى الأحاديث وتعطى الدروس من رب الدار أو من الوافدين عليه من علماء الدين واللغة، فتغدو هذه الديوانية قبلة لطلاب العلم فترة من الزمن قد تقصر وقد تطول. وفي بعض هذه الديوانيات مكتبات أغلب كتبها في الدين واللغة والأدب.

وعندما اشتد اتصال الكويت بالخارج، وتنوعت متطلبات الحياة فيها في عهد الشيخ مبارك الصباح، أحس التجار الكويتيون بحاجة البلد إلى تعليم أكثر تنظيما، فجمعوا فيما بينهم تبرعات بلغت ٧٧٥٠٠ روبية، وكان هذا يعد مبلغاً ضخما في ذلك الوقت. وأنشأوا أول مدرسة شبه رسمية تم افتتاحها في أوائل سنة ١٩١٢ وأسموها بالمدرسة المباركية تيمنا باسم حاكم البلاد إذ ذاك، وكون لها مجلس من التجار الذين أسهموا في التبرع لها، وأنفقوا عليها بعض ما فاض عن تكاليف إنشائها، ووظفوا بعضه في عمليات الغوص على اللؤلؤ لتنميته.. إذن فقد كانت أول محاولة لتنظيم التعليم محاولة أهلية صرفة.

وكانت المدرسة المباركية في أول أمرها بمستوى علمي متواضع ولم يكن هناك منهج متفق عليه، ولكنها كانت تعنى بالدروس الدينية، كما كانت تعنى بتنظيم الدفاتر التجارية وحسابات الغوص والسفر، الأمر الذي كانت تفرضه البيئة فرضاً. وسار التعليم فيها بحماس أخذ يفتر تدريجياً ونفدت الدراهم المخصصة للمدرسة وفارقها أساتذتها المعروفون كالشيخ حافظ وهبة والشيخ عبد العزيز الرشيد صاحب تاريخ الكويت، فاضمحل شأن المدرسة المباركية وأوشكت أن تصبح كتّاباً لا يختلف عن غيره من الكتاتيب، وفشلت بعض محاولات المخلصين لإصلاح شأن التعليم فيها فاجتمعوا فيما بينهم وجمعوا

التبرعات وشجعهم على مساعيهم حاكم البلاد إذ ذاك الشيخ أحمد الجابر الصباح وأنشأوا مدرسة أخرى سموها المدرسة الأحمدية سنة ١٩٢٠م. وكانت هذه المدرسة الجديدة على ما يبدو أكثر تحرراً في أساليبها ومناهجها من المباركية. وعاد إليها بعض الأساتذة الذين هجروا المدرسة الأولى وقام على إدارتها الأستاذ عبد الملك بن صالح المبيض، أحد المربين الذين كان لهم شأن عظيم وتأثير كبير في حقل التعليم بالكويت.

وظلت المباركية والأحمدية المدرستين شبه الرسميتين، وكان الإقبال عليهما يتزايد ويتناقص كلما ظهر كتّاب جديد أو انغلق كتّاب آخر.

وعندما بدأ الإقتصاد الوطني يسترد قوته بعد الأزمات التي واجهها الغوص، والأزمة العالمية الشاملة بعد الحرب العظمى الأولى، وعندما بدأ النقل البحري يستوي أمره ويشتد، فتوسعت المعاملات مع شبه القارة الهندية والبلاد المجاورة، وأقدم التجار الكويتيون على مطالبة الحكومة بتنظيم التعليم على أسس حديثة أسوة بما هو الشأن في العراق وسوريا ولبنان، وعرضوا على الحكومة أن تفرض ضريبة على الواردات تخصص للتعليم، واتفقوا أن تكون الضريبة نصفا بالمائة زيادة على ضريبة الجمارك، واستجابت الحكومة لطلبهم، وتأسس على أثر ذلك أول مجلس للمعارف بالكويت للنظر في كيفية إنشاء نظام للتعليم الحديث في الكويت وللإشراف على المعارف وسيرها بصفة عامة.

كان ذلك في عام ١٩٣٦، وكانت النهضة الوطنية في العراق واحتكاك الكويت بجارتها في الشمال وتوثق الصلات التجارية بين البلدين، مضافا إلى ذلك دور الصحافة العربية، من أهم أسباب استثارة الوعي الوطني بالكويت، وشعور الناس بضرورة إعادة تنظيم أمورهم

على نسق جديد يتمشى مع سير الأمور عند إخوانهم في الأقطار العربية الشقيقة.

وفي ذلك الحين (عام ١٩٣٦) كانت قضية فلسطين تشغل أذهان العرب وكان الفلسطينيون مثال الفداء والتضحية في سبيل العروبة والإسلام، لهذا تلفت الكويتيون إلى فلسطين لاستقدام أول بعثة للتعليم للعمل في الإطار الجديد لمعارف الكويت. ولكن فلسطين كانت محكومة بالإنجليز فاتجه الكويتيون إلى سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الذي اختار حسب طلب الكويت أربعة من الأساتذة بدأوا العمل فوراً مع زملائهم الكويتيين في خط السطور الأولى للتعليم الحديث بالكويت.

وبدأت معارف الكويت تطبق المنهج العراقي. ولعل السبب هو الصة الوثيقة بين البلدين، أو لعل السبب أن ناظر المدرسة كان مدرساً بالعراق كما كان متخرجا من دار المعلمين الابتدائية فيها. ولم تستقر الكويت على منهج مدروس يلائمها، بل كانت تتأرجح حسب الظروف والعوامل المختلفة بين تقليد منهج هذا البلد العربي أو ذاك، حتى استقدمت عام ١٩٥٥ الأستاذ إسماعيل القباني والدكتور متى عقراوي اللذين كلفا بدراسة شؤون التعليم بالكويت دراسة مستفيضة، قاما بها على أكمل وجه، وقدما تقريراً وافياً، هو الأساس الذي نظم عليه التعليم أخيراً بالكويت.

عندما بدىء في تنظيم التعليم عام ١٩٣٦ كان عدد المدارس بالكويت اثنتين فحسب هما المباركية والأحمدية بهما ٦٠٠ تلميذ، ويدرس فيهما ٢٦ مدرساً. وفي العام الثاني فتحت مدرستان أخريان للبنين كما فتحت أول مدرسة رسمية للبنات أمتها ١٤٠ تلميذة تدرسهن خمس معلمات. ثم سار التعليم بخطوات رزينة ثابتة وأخذ عدد التلاميذ

يزداد بانتظام حتى بلغ عدد الطلاب عام ٥٠ ـ ٥١ (٤٥٢٠) طالباً وعدد الطالبات (١٧٧٢) طالبة. ثم أخذت الزيادة تظهر في قفزات سريعة إلى الأمام وبالأخص فيما يتعلق بتعليم البنات، حتى بلغ مجموع الطلاب والطالبات في العام الدراسي الماضي (٥٨ ـ ٥٩) ٢١٧٦٤ طالباً و ١٢٦٦١ طالبة وبلغ عددهم في العام الدراسي الحالي (٢٤٩٩٦) طالباً و (١٥٢١٥) طالبة، أي أن مجموع عدد الطلاب والطالبات (٤٠٢١١) من مجموع عدد السكان الذين يتراوح تعدادهم بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ألف نسمة[١].

هذا النمو السريع في التعليم الرسمي صحبه هبوط سريع في الكتاتيب والمدارس الأهلية، وقد أغلق آخر كتّاب أو مدرسة أهلية أبوابها منذ عامين، وبذلك أصبحت الحكومة مسؤولة عن التعليم بأجمعه ولكل المواطنين على السواء. وليس في الكويت مدارس غير حكومية إلا تلك المنشأة للجاليات الأجنبية أو المعاهد المسائية لتعليم اللغات. وهذه تقع تحت رقابة وإشراف المعارف حسب المرسوم الأميري المؤرخ في أول يناير ١٩٦٠.

لقد أشرنا إلى أن ميزانية التعليم في أول تنظيمه كانت تأتي من الضريبة التي فرضها الكويتيون عام ١٩٣٦ على البضائع الواردة. وقد ألغيت هذه الضريبة عندما بدأ يزداد دخل الكويت من عوائد النفط. كانت ميزانية التعليم عام ٤٢ ـ ٤٣ (٤١٥٠٥٤) روبية، وعند أول إنتاج النفط عام ٤٦ ـ ٤٧ ارتفعت الميزانية إلى (١,١١٧,٠٧٦) روبية. ثم إلى ٣٢ مليونا عام ٥٢ ـ ٥٣، وإلى ١٤٥ مليون روبية عام ٥٦ – ٥٧،

---

(١) عدد تلاميذ المدارس الحكومية في العام الدراسي ٩٣/١٩٩٤ بلغ ٢٦٧١٩٩ تلميذاً وتلميذة. (الناشر).

وكانت ميزانية العام الماضي سنة ١٩٥٨، (١٥٠,١٢٠,٤٢٠) روبية والميزانية المقدرة لهذا العام الدراسي (٥٩ ـ ٦٠) حوالي مائتي مليون روبية.

يدخل في هذه النفقات تكاليف إنشاء المباني التعليمية التي تعد من أحسن المباني من حيث المستوى المعماري، وأكثرها ملاءمة لأغراض التعليم وتتوافر فيها كل الوسائل المادية التي تجعل من المدرسة مكانا صالحا لتحقيق أحدث الطرق التربوية.

ويقدر ما ينفق بالكويت بأكثر من عشرة بالمائة من مجموع دخل الدولة، ومتوسط ما يتكلفه الفرد في المدرسة مساوٍ لأعلى مستوى يتكلفه الطالب في أمريكا أو شمالي أوروبا لأسباب ستتضح فيما بعد.

ولكي نعطي صورة عن الجوانب التي يتميز بها نظام التعليم القائم بالكويت الآن، يجدر بنا أن نلم في عجالة بالنواحي الاتية:

١ ـ المجانية التامة:

إذ لا تتقاضى الدولة مصروفات، أيا كان نوعها، من الطلاب في جميع المستويات الدراسية، ويشمل ذلك مجانية الكتب والأدوات المدرسية والقرطاسية، كما تتكفل المعارف بنقل التلاميذ الذين يقطنون مناطق نائية عن مدارسهم. ورغبة منها في توحيد الزي بين الطلاب لإزالة الفوارق وتقريب المظاهر فإنها تمنح كل طالب زياً مدرسياً للصيف وآخر للشتاء، حسب جدول مدروس لكل مرحلة دراسية ولكل نوع من التعليم. وعندما لاحظت المعارف أن بعض الأمراض الناتجة عن سوء التغذية منتشرة بين الأطفال أنشأت منذ خمس سنوات مطبخاً مركزياً يعد أكبر مطبخ من نوعه في العالم، بإعداد الخبز وتحضير اللبن وإعداد الوجبات الغذائية المختلفة بطريقة آلية، وينتج ما يزيد عن خمسين ألف

وجبة كل يوم توزع بسيارات بنيت خصيصاً لهذا الغرض على جميع المدارس في المدينة والقرى بحيث تصلها طازجة، حارة أو باردة وعلى هذا فكل تلميذ بالكويت يأكل مرة واحدة على الأقل في مدرسته، أما إذا كانت مدرسته تتبع نظام الدوام الواحد كأغلب المدارس المتوسطة فإنه يتناول وجبتين يومياً، وفي رياض الأطفال والمدارس الداخلية يتناول وجبات ثلاث، وقد بدأ أثر هذه التغذية المنظمة على الناشئة بصورة واضحة يفوق ما تتكلفه الدولة من مصاريف[١].

وهذه الخدمات تقدم لجميع التلاميذ والتلميذات في المدارس دون النظر إلى مستوياتهم المادية أو جنسياتهم.

وهناك مكافآت تقدم لطلاب وطالبات المعاهد التي ترى المعارف تشجيع الالتحاق بها كطلبة الكلية الصناعية ومعهد المعلمات والمعهد الديني. كما أن هناك نظاماً وضع بالإشتراك مع دائرة الشؤون الاجتماعية لإعانة الطلاب الفقراء الذين يخشى أن يستعين بهم آباؤهم في العمل فيتركون المدرسة في سن مبكرة، وبالأخص أن التعليم بالكويت ليس إجبارياً بعد.[٢]

٢ - البعثات إلى خارج الكويت:

إن أول بعثة رسمية أوفدت إلى الخارج كانت إلى مصر عام ١٩٣٩ إلا أنه كثيراً ما ذهب بعض طالبي المعرفة على نفقتهم الخاصة قبل هذا التاريخ للدراسة في الأزهر بالقاهرة أو إلى بغداد، أو إلى

(١) في اطار سياسة ترشيد الانفاق تم وقف صرف وجبات التغذية المجانية لطلبة المدارس واقتصرت على الملتحقين برياض الأطفال. (الناشر).

(٢) صدر لاحقا القانون ١١١/ ١٩٦٥ في شأن التعليم الإلزامي. (الناشر).

الإحساء التي كانت تعد في الماضي أهم مركز للدراسات الدينية واللغوية في الخليج. وكثرة أسفار الكويتيين جعلتهم يدركون أهمية الدراسة والتخصص في المعاهد العلمية والعالية. وقبل حوالي خمسين عاماً قال الربان الكويتي النابغة عيسى بن قطامي (صاحب كتاب دليل المحتار في علم البحار والمتوفى سنة ١٩٢٩) في زجل له:

لو علموني هلي في مصر أو بيروت لابدع عجايب لهم تذكر بعد ما موت
لكن وياللأسف كم واحد منعوت يعرف من العلم أبوابه ولا ينفع
ولا فتح باب لأبناء الوطن ينفع ولا تصدى بألف له كتاب ينفع
هذا، وعندي مثل هذا عساه يموت..

ثم بدأ التوسع في إرسال البعثات منذ فتح بيت الكويت بالقاهرة عام ١٩٤٥، وللكويت الآن مكتب للبعثات في كل من بريطانيا والولايات المتحدة والقاهرة. وكانت أول بعثة رسمية للبنات أوفدت عام ١٩٥٦ إلى القاهرة.

وقد كانت الكويت ترسل جميع خريجي المعاهد الثانوية في بعثات إلى الخارج تتكفل بجميع مصروفاتهم بصرف النظر عن مقدرتهم المادية حسب نظام للبعثات وضع عام ١٩٤٥ ثم عدل عام ١٩٥٩، وقد بدىء في تحديد ارسال المبعوثين للخارج ابتداء من العام الحالي من حيث العدد. وقد بلغ عدد الموفدين على نفقة الحكومة عام ٥٨ ـ ٥٩ (٣٦٤) بعثة بينهم ٣٤ طالبة. وبلغ عام ٥٩ ـ ٦٠ (٤٢٨) بعثة بينهم ٥٠ طالبة.

ولا يخفى الأثر الاجتماعي الذي يتركه أعضاء البعثات بعد عودتهم في مجتمع صغير كالكويت سريع التأثر بالتطورات الحديثة. وهذه الفئة من الخريجين هي الفئة التي ستحتل القيادة في المجتمع الكويتي الجديد.

وكما ترسل الكويت أبناءها للدراسة العالية في الخارج فإنها تستقبل طلابا من أبناء الجزائر وإمارات الخليج العربي وإمارات جنوبي الجزيرة للدراسة في معاهد الكويت على نفقة المعارف، وقد بلغ عدد البعثات العربية بالكويت هذا العام ١٧١ طالباً كما تقوم معارف الكويت بالإشراف على التعليم في إمارات ساحل عمان[1] وترسل بعثة من الأساتذة للقيام بالتدريس في مدارسها.

٣ ـ رياض للأطفال:

إن التعليم العام في الكويت يتكون من مراحل ثلاث، المرحلة الابتدائية والمرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية. ومدة الدراسة في كل مرحلة أربع سنوات، وسن القبول في المدرسة الإبتدائية ست سنوات.

وعند بدء انتشار التعليم بالكويت لاحظت المعارف، الفارق الكبير بين المنزل والمدرسة بحيث يحتاج الطفل عند دخوله المدرسة الابتدائية إلى فترة من الوقت يستطيع بها أن يكيف نفسه لجو المدرسة، أضف إلى هذا أن أغلب الأمهات كن ممن فاتهن قطار التعليم، فغدا من المصلحة الوطنية أن تقوم المعارف بما لديها من إمكانيات بالإشراف على تربية الناشئة أطول فترة ممكنة من الزمن. ولهذا الغرض أنشأت عام ١٩٥٤ روضتي أطفال على سبيل التجربة يدخلها الأطفال من الجنسين في سن الرابعة ويمكثون بها سنتين ينتقلون بعدهما إلى المدرسة الإبتدائية. وقد نجحت هاتان المدرستان نجاحاً كبيراً شجع المعارف على فتح عدد من الرياض كل عام استجابة لرغبة أولياء الأمور الذين أقبلوا بشدة على إلحاق أطفالهم بها وقد بلغ عددها عام ٥٨ ـ ٥٩ تسعاً

---

(١) توقف هذا الدور مع قيام دولة الامارات العربية المتحدة. (الناشر).

زادت إلى ١٥ روضة هذا العام الدراسي (٥٩ ـ ٦٠)[١] وستزداد خمساً في العام القادم وتستمر الزيادة فيما نرجو بحيث يغدو في كل حي صغير روضة لأطفاله. ويمكن أن يلخص الهدف من إنشاء هذه الرياض وتعميمها بما ورد في توجيهات المعارف لمربياتها: (تهيئة جو صالح للأطفال في سن الرابعة إلى السادسة يجدون فيه من متعة الإيناس ومرح الطفولة وضروب اللعب المنظم ما لا يجدونه في محيط المنزل، ورعايتهم الرعاية الصحية الملائمة، وتدريبهم على ألوان من العادات والتقاليد تصلح أساساً لتنشئة المواطن الصالح).

ولعل الكويت هي البلد الوحيد التي تهيىء لجميع الأطفال رياضاً مجانية لمدة عامين قبل المدرسة الابتدائية.

٤ ـ التعليم الخاص:

ونقصد به تعليم غير الأسوياء من المواطنين. فقد كانت هذه الفئة قطاعا مهملا من المجتمع لا تنال رعاية أو عطفاً أو توجيهاً ، كما كانت عالة على المجتمع لا يفيد منها شيئاً. وقد بدأت المعارف أول معهد للمكفوفين عام ١٩٥٥[٢] ثم أنشأت معهداً للمكفوفات وآخر للصم والبكم من الجنسين، وفي برنامج عام ٦٠ ـ ٦١ إنشاء معهد لضعاف العقول [٣]. وقد تم وضع برنامج لتدريب كبار السن من غير الأسوياء

(١) عددها ١٢٦روضة أطفال في العام الدراسي ٩٣/ ١٩٩٤ . (الناشر).

(٢) هناك ١٢ مدرسة من مدارس التربية الخاصة في العام الدراسي ٩٣/ ١٩٩٤ يبلغ عدد تلاميذها ١٤٢٢ . (الناشر).

(٣) استدعت المعارف الأستاذ سيد عبد الفتاح الخبير في التعليم الخاص فوضع تقريراً في هذا الشأن لتسير عليه الكويت في مارس ١٩٦٠ .

على مهن تحفظ لهم كرامتهم وتكون مصدراً لرزقهم يتم تنفيذه بوساطة إدارة الشؤون الاجتماعية.

٥ ـ الدورات التدريبية:

تقوم إدارة المعارف بدورات تدريبية للمدرسين والمدرسات الذين لم ينالوا قدراً كافياً من الإعداد للمهنة. وتتم هذه الدورات خلال العام الدراسي في المواد المختلفة وفي طرق التدريس وفي استعمال وسائل الإيضاح. كما أن هناك دراسات تربوية ينال الناجحون من المتقدمين إليها شهادات دراسية ذات قيمة أدبية ومادية. وتعتبر هذه الدورات من أهم الوسائل المتبعة لرفع مستوى المدرس العلمي والمهني.

٦ ـ الدراسات المهنية المسائية:

نظراً للتطور السريع الذي تم بالكويت في السنين العشر الماضيات، فقد فات كثيراً من المواطنين التدريب والإعداد الكافي الذي يستطيعون أن يسايروا به هذا التطور. واضطرت الإدارات الحكومية والشركات وأصحاب الأعمال إلى الاعتماد على القوى العاملة غير الكويتية في الحرف والأعمال التي تستدعي مهارات خاصة. لذلك فقد بدىء عام ٥٥ ـ ١٩٥٦ في تنفيذ مشروع للتدريب المهني في الكلية الصناعية مدته عام واحد، ويشمل حرفا عديدة، منها الخراطة والبرادة والتركيبات الكهربائية وميكانيكا السيارات ونجارة الأثاث وسبك المعادن والتنجيد، ويتم التدريب في المساء، وتقوم إدارة الشؤون الاجتماعية بتقديم مكافآت للذين لا يعملون من المتدربين، أما الذين يعملون في الصباح فإنهم يرقون بعد التخرج إلى أعمال تتفق وما تدربوا عليه كما ترفع مرتباتهم. وقد تم في السنوات الأربع الماضيات تدريب ٥١٥ عاملا فنياً.

وإلى جانب التدريب الصناعي هناك دراسات تجارية مسائية بدىء

فيها عام ٥٢ ـ ١٩٥٣ الغرض منها تهيئة المجال لصغار التجار والكتاب والموظفين للاستزادة من العلوم التجارية الحديثة في أوقات فراغهم، كمسك الدفاتر والمحاسبة والآلة الكاتبة والآلة الحاسبة واللغة الإنجليزية. . الخ. . ويؤم هذه الدراسات عدد كبير من المواطنين يكتسبون منها المهارة التي تساعدهم على اللحاق بالركب وتعطيهم المزيد من الإمكانيات في أعمالهم. ومدة الدراسة فيها سنتان يختار فيها الطالب المواد التي يريد دراستها ويمنح شهادة في المواد التي ينجح فيها.

ونشير هنا إلى المحاولات الموفقة التي تتعاون إدارتا المعارف والشؤون الاجتماعية في بذلها لمحو أميّة الراشدين. فهناك سبعة عشر مركزا لمحو الأمية والتربية الأساسية في المدينة والقرى، يرتادها العدد الكبير من الذين فاتهم التعليم في المدارس، وينالون فيها إلى جانب تعلم القراءة والكتابة قسطاً من الثقافة والتوجيه والترفيه.

٧ ـ التثقيف العام:

تقوم المعارف بالإشراف على المكتبات العامة، وبالكويت الآن مكتبة مركزية وثلاثة فروع[١]، وقد وضع برنامج لفتح مكتبة فرعية في كل حي وفي كل قرية. كما تنظم المعارف موسماً ثقافياً يدعى إليه خيرة من المحاضرين في مختلف الآداب والفنون، يقام كل عام لمدة شهرين، وهي المسؤولة عن المتاحف والآثار[٢]. وتشرف على الحركة الكشفية التي تعتبر من أنشط حركات الكشف في المنطقة.

---

(١) هناك الآن مكتبة مركزية و ٢٢ مكتبة عامة في مناطق الكويت المختلفة. (الناشر).

(٢) أصبحت تابعة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. (الناشر).

٨ ـ تعليم البنات:

عندما بدئ في تنظيم التعليم عام ١٩٣٦ لم تكن هناك مدرسة واحدة لتعليم البنات، وكان عدد الكتاتيب المختصة بالإناث محدوداً بالكويت. ولم تكن هناك دعوة من المرأة لأن تتعلم أو تشارك الرجل في مسؤولياته العامة في المجتمع، ومع ذلك فخلال عشرين عاماً أنشئت في الكويت مدارس للبنات تضم الآن ١٥٢١٥ تلميذة وأصبح في كل حي وفي كل قرية بالكويت مدرسة للبنين وأخرى للبنات، وغدا تعلم البنت اليوم قضية مسلماً بها لا تحتمل النقاش، وفي هذا العام الدراسي (٥٩ ـ ١٩٦٠) كان عدد المستجدين في رياض الأطفال والمرحلة الابتدائية من كل من الإناث والذكور يكاد يكون متساوياً مما يدلل دلالة واضحة على أن الآباء والأمهات قد اقتنعوا أن تعليم فتياتهم لا يقل أهمية عن تعليم فتيانهم. وفي السنوات الأخيرة كان الارتفاع في عدد الطالبات شديداً بشكل يلفت النظر فبعد أن كانت نسبة الإناث إلى الذكور بالمدارس عام ٤٠ ـ ٤١ هي ٢٠٪ أصبحت عام ٥٠ – ٥١ ، ٢٨٪ وهي الآن (عام ١٩٦٠)[١] ٣٨٪ من مجموع البنين والبنات (١٥٢١٥ تلميذة و ٢٤٩٩٦ تلميذاً).

وفي بلد محافظ كالكويت ما زالت الغالبية العظمى من نسائه محجبات يعتبر تعليم المرأة بهذه الصورة الشاملة ثورة اجتماعية سيكون لها أبعد الأثر في تكييف المجتمع وتطويره. وقد كان الكثيرون يتوقعون عندما وصلت الفتاة إلى نهاية المرحلة الثانوية بالكويت أن تحول التقاليد دون استمرارها في الدراسة الجامعية، ولكنها اقتحمت هذا الميدان في

(١) عدد تلميذات المدارس الحكومية في العام الدراسي ٩٣/ ١٩٩٤ يصل إلى ١٣٣٩٦٦، وهو يفوق عدد التلاميذ الذكور البالغ ١٣٣٢٣٣ . (الناشر).

سهولة كبيرة وجلست على مقاعد الدراسة في الجامعات إلى جانب زميلها الطالب دون معارضة تذكر. وفي القريب العاجل ستحتل المرأة في الكويت مكانها اللائق في الحياة العامة وسيكون لها صوت مسموع في قضايانا ومشكلاتنا المختلفة، وقد بدأت الأم المتعلمة بالفعل تحتل مكانها في المنزل الكويتي الجديد وتثبت وجودها باعتبارها الأداة الفعالة الأولى في كيان المجتمع الحديث.

هذه ملامح من التعليم الحديث في الكويت رسمتها في سرعة واقتضاب، وقد واجهتنا الكثير من المشكلات والصعوبات في الوصول إلى ما وصلنا إليه، وما زالت أمامنا عقبات أخرى نرجو أن نستطيع تخطيها. وأكبر صعوبة تواجهنا الآن هي مشكلة إعداد المدرسين. فقد انتشر التعليم في الكويت في وقت عم فيه الرخاء وكثرت فيه فرص العمل وبالأخص في المجال الحر، فعزف الناس عن وظيفة التعليم لما فيها من ارهاق ولما تحتاج من إعداد خاص ولأنها ذات مستقبل محدود لا يتسع للطامحين في وقت تتسع فيه فرص الكسب الكبير للكثيرين. لذلك فإنه عندما فتحت مدرسة للمعلمين يتقاضى طلابها مكافآت أثناء دراستهم لم يلتحق بها إلا عدد يسير واضطرت المعارف إلى اغلاق أبوابها لخلوها من الطلاب، واستمر معهد المعلمات يخرج عدداً يسيراً من المعلمات كل عام لأن مجال العمل الحر غير متوافر للمرأة كما هو الرجل ولأن مجال التعليم فيما يبدو، هو أول المجالات التي تغزوها المرأة عندما تتعلم ولهذا فإنني متفائل بأن عدد المعلمات الكويتيات سيفوق عدد المعلمين الكويتيين في المستقبل القريب.

إننا نعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً في الوقت الحاضر على المعلمات والمعلمين من الأقطار العربية الشقيقة، فمن بين مجموع المعلمين والمعلمات الذين يعملون في المعارف هذا العام (١٩٥٩ -

١٩٦٠) والبالغ عددهم ٢١٨٢ معلماً ومعلمة ووكيلاً وناظراً وناظرة، لا يوجد غير ١٣٩ كويتياً وكويتية[1]، والباقون منتدبون للعمل معنا من الجمهورية العربية المتحدة، أو متعاقدون معنا من شتى الأقطار العربية. وإنه لمن دواعي فخرنا وعزتنا، نحن العرب، أن نجد هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة، التي تمثل كل جزء من أجزاء الوطن العربي تعمل في انسجام تام وفي تعاون كلي لتحقيق أهداف التعليم في هذا القطر العربي الصغير.

إن من برامج المعارف افتتاح دار للمعلمين في عام ١٩٦١ إذ أننا نعتقد أن المرحلة القادمة من مراحل التطور السريع الذي نحن فيه ستنتهي عما قريب، وأن الأمور ستكون طبيعية أكثر في السنوات القليلة المقبلة، وستستقر الأحوال بعد أن قطع التعليم شوطاً لا بأس به، لذا فلن يعدم معهد المعلمين طلاباً في ذلك الحين وسيكون من أهدافنا الأولى إعداد معلمي ومعلمات المرحلة الأولى، إذ أن من الصعوبات التي نواجهها الآن صعوبة فهم الأطفال الكويتيين الصغار لهجات أبناء البلاد العربية المختلفة. ناهيك بما يجب على المعلم أن يعرفه عن بيئة الطفل وتنشئته في منزله، وتقاليد مجتمعه الصغير.

ومن الصعوبات التي نواجهها الملاءمة بين البيت والمدرسة، فنحن نمر بفترة انتقال خطيرة، يتعلم فيها الجيل الجديد علوماً حديثة ويفكر تفكيراً علمياً جديداً وينظر في مشكلاته خلال ثقافة جديدة ويحكم على الأمور حكماً يستند إلى مبررات ما كان يقرّها مجتمعه القديم. وهكذا يضم البيت جيلين يختلفان في النظرة إلى الحياة وتفهم

---

(١) عدد المعلمين الكويتيين بالمدارس الحكومية في العام الدراسي ٩٣/ ١٩٩٤ بلغ ١٣٣٨٣ معلماً ومعلمة من بين ٢٣٥٠١ وتبلغ نسبتهم ٥٧٪. (الناشر).

مشكلاتها، وتقع المدرسة في حيرة بين جذب الحياة الجديدة التي تدعمها وجذب الحياة القديمة التي تحاول أن تعيش أطول ما تستطيع من الزمان، ولكنها تحاول أن توفق بين القوتين الجاذبتين عالمة أن النصر سيكون حليفها آخر الأمر. لقد كانت معارف الكويت على إيمان ويقين أن التطور الاجتماعي يجب أن يتم في رفق ولكن في تصميم، وأن التعليم كفيل بتطوير المجتمع إذا كان تعليماً يهدف إلى العناية بالفرد من جميع جوانبه باعتباره قوة متكاملة يجب أن تنمو نمواً متناسقاً، عنايته بالمجتمع باعتبار أن الفرد ليس إلا عضواً عاملاً ونامياً في مجتمع عامل تام متكامل.

ونختتم هذا الفصل بالحديث عن بعض المشروعات الجديدة التي ستضطلع بها معارف الكويت في المستقبل القريب.

١ ـ جامعة الكويت[1]:

قامت لجنة من ثلاثة من الخبراء[2] الجامعيين بدعوة من حكومة الكويت بدراسة إمكانية انشاء جامعة الكويت، وقدمت تقريرها في فبراير الماضي (١٩٦٠) ومن المتوقع أن يبدأ في عمل الترتيبات منذ الآن لافتتاح كلية الآداب والعلوم بعد ثلاث سنوات. ومن المتوقع كذلك أن تكون جامعة الكويت مركزاً للإشعاع في منطقة الخليج العربي، وأن تكون مجالاً للدراسات المتعلقة بالمنطقة كدراسة شؤون البترول والصحراء، متعاونة مع زميلاتها الجامعات العربية لنشر العلم والمعرفة في ربوع الوطن العربي بأجمعه.

---

(١) افتتحت في العام الجامعي ٦٦/١٩٦٧ . (الناشر).

(٢) هم: د. سليمان حزين مدير جامعة أسيوط، د. قسطنطين زريق النائب السابق لرئيس الجامعة الأمريكية ببيروت والسير إيفور جننجز الأستاذ بجامعة كامبرج.

٢ ـ المتحف الوطني:

أعدت الدراسة اللازمة لإنشاء متحف الكويت الوطني، قام بها خبير عربي[١] منتدب من منظمة اليونسكو، وسيحل هذا المتحف عند إنشائه مكان المتحف المؤقت الحالي، وسيحتوي على أقسام رئيسية أربعة:

١ - قسم الآثار القديمة.

٢ - قسم المجتمع الكويتي القديم.

٣ - قسم التاريخ الطبيعي.

٤ - قسم الأسماك. وسيلحق بالقسم الأخير معهد للأحياء المائية.

وقد وضعت التصاميم للمتحف في منافسة عالمية. وتسير العناية بالمتحف الجديد وإنشائه جنباً إلى جنب مع حفريات الآثار التي ينتظر أن تتسع لتشمل نواحي عديدة من الكويت وجزرها، حتى يتم الكشف عن تاريخ هذه المنطقة في العصور القديمة، وذلك بعد التوفيق الذي أصابته بعثة الآثار الدنمركية التي تنقب حالياً في جزيرة فيلكا.

٣ ـ المدرسة البحرية:

سيبدأ بإنشائها بعد عام لكي تسد ثغرة كبيرة في التعليم بالكويت ولكي تحيي تقاليد الكويت البحرية، وتخرج رجالاً يستفيدون من الصناعة البحرية والتجارة البحرية كما أفاد آباؤهم من قبل. وستعنى المدرسة بإنشاء المراكب وصيانتها وبتعليم الملاحة في البحار وقيادة السفن على اختلافها.

---

(١) هو الدكتور سليم عبد الحق المدير العام للآثار بالإقليم السوري.

٤ ـ العيادات النفسية:

لقد لحظنا في السنوات الأخيرة أن الإنحرافات النفسية والأمراض العصبية، بدأت تنتشر بشكل ملحوظ بين الناشئة نتيجة للحياة الجديدة التي طرأت على الكويت بصورة شبه مفاجئة، لم يستطع الكثيرون التكيف معها. ويرجى أن تسهم هذه العيادات النفسية بمن فيها من اختصاصيين نفسيين واجتماعيين في وقاية شبابنا وعلاجهم من هذه الإنحرافات والأمراض النفسية.

٥ ـ المجلة التربوية:

نرجو أن تصدر في العام الدراسي المقبل، يحررها المربون من مفتشين ونظار ومدرسين، وتبحث مشكلات التعليم في الكويت، وتنشر التجارب التي يمارسها ويمر بها المربون، كما سيسهم فيها نخبة من رجال التعليم في البلاد العربية. وقد تم هذا العام إصدار مجلة الصحة المدرسية لمطالعة الطلاب لاقت نجاحاً كبيراً.

٦ - وبالإضافة إلى المدارس البالغ عددها ٨٨ مدرسة هذا العام الدراسي[1] سيفتتح في العام القادم عشر مدارس ابتدائية ومتوسطة وخمس رياض أطفال لمواجهة الزيادة المتوقعة في عدد التلاميذ والتلميذات والتي تقدر بسبعة آلاف تلميذ وتلميذة. كما سيشرع في إنشاء مدرسة ثانوية داخلية للبنات ودار للمعلمين. وبذلك تستمر سياسة المعارف التي بدأتها منذ عشر سنوات وحققت فيها هدفها من إيجاد مكان في المدارس لكل راغب في الدراسة.

---

(١) يبلغ عدد المدارس الحكومية ٥٥٤ مدرسة في العام الدراسي ٩٣/١٩٩٤ (الناشر).

لمزيد من البحث عن تطور التعليم بالكويت

١ - تقارير معارف الكويت السنوية من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٦٠.
٢ - تقرير عن التعليم بالكويت للأستاذ إسماعيل القباني والدكتور متى عقراوي.
٣ - تاريخ الكويت للشيخ عبدالعزيز الرشيد.
٤ - الملتقطات، الجزء الثاني، للشيخ يوسف بن عيسى القناعي.
٥ - صفحات من تاريخ الكويت، للشيخ يوسف بن عيسى القناعي.
٦ - أعداد مجلة البعثة الصادرة عن بيت الكويت بالقاهرة.
٧ - تقرير عن «التعليم في إمارة الكويت» للأستاذين محمد علي رضا وحافظ أحمد حمدي ١٩٥٢.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الفصل الأول

الخليج العربي

الفصل الثاني

استعراض سريع لتاريخ الكويت

الموضوع الصفحة

الفصل التاسع

قصة التعليم في الكويت



الأستاذ/ عبدالعزيز حسين

مواليد الكويت ١٩٢٠/١١/٢٦

عضو أول بعثة تعليمية الى القاهرة ١٩٣٩، خريج كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر ١٩٤٣ ومعهد التربية العالى ١٩٤٥

مدير بيت الكويت في القاهرة ٤٥ ـ ١٩٥٠

مؤسس مجلة «البعثة» ١٩٤٦

دبلوم تربية من معهد التربية بجامعة لندن ١٩٥٢

مدير دائرة المعارف ٥٢ ـ ١٩٦١، مندوب الكويت لدى الأمم المتحدة وسفير الكويت في مصر وممثلها لدى الجامعة العربية ٦١-١٩٦٣، وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ٦٣ ـ ١٩٦٥ . ٧١ ـ ١٩٨٥، مؤسس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٧٣

عضو المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو ٨٣-١٩٨٧

مستشار بديوان صاحب السمو الأمير منذ ١٩٨٥.

